ثقافة المتنبي

فاروق حسان



العلم و الإيمان للنشر و التوزيع

ثقافة المتنبي

فاروق حسان

العلم والإيمان للنشر والتوزيع

البيـــانـــات			
عنوان الكتاب - Title	ثقافة المتنبى .		
المؤلف - Author	فاروق حسان		
الطبعة - Edition	الأولى .		
الناشر - Publisher	العلم والإيمان للنشر والتوزيع .		
عنوان الناشر Address	كفر الشيخ - دسوق - شارع الشركات ميدان المحطة. تليفون : ٠٠٢٠٤٧٢٥٥٠٣٤١ فاكس : ٠٠٢٠٤٧٢٥٦٠٢٨١		
بيانات الوصف المادي	عدد الصفحات Pag.	مقياس النسخة Size	التجليد
	١٦٠	٢٤,٥ x ١٧,٥	مجلد
المطبعة - Printer	الجلال .		
عنوان المطبعة - Address	العامرية إسكندرية.		
اللغة الأصل	اللغة العربية .		
رقم الإيداع	٢٠٩٥ / ٢٠٠٨م		
الترقيم الدولى .I.S.B.N	977- 308 -170 - 2		
تاريخ النشر - Date	2008		

إهداء

إليه . . هناك . .

فى جنات النعيم . . .

ابنى شريف . . .

الذى فارقنا طفلاً . . . . .

وكأنه استشرف الآتى . . .

فاروق

ربيع ٢٠٠٣

وللشعر صناعة وثقافة يعرفها أهل العلم كسائر أصناف العلم والصناعات ،منها ما تثقفه العين ، ومنها ما تثقفه الأذن ، ومنها ما تثقفه اليد ، ومنها ما يثقفه اللسان . .

"ابن سلام /طبقات فحول الشعراء "

الفهرس

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

موضوع الدراسة وأهدافه ومنهجه ومراجعه ومصادره

لم يحظ شاعر بالاهتمام قديماً وحديثاً مثلما حظى المتنبى. ولم يقتصر الاهتمام به على الدائرة العربية وحدها ، وإنما تجاوزها وتعداها إلى المستشرقين فى كافة أنحاء أوروبا وبخاصة :بلاشير وكراتشوفسكى وجبريلى وغيرهم .

وقد اعتاد الباحثون والدارسون أن يضمنوا مقدماتهم عرضاً للمصاعب التى تلقاهم أثناء بحثهم والتى يتمثل أبرزها فى ندرة المصادر والمراجع أو قلتها .ولكن الأمر بالنسبة للمتنبى يختلف ،فتتبع ذلك العدد الهائل من الدارسين لشعره – سواء له أو عليه – يمثل عبئاً ثقيلاً لمن يتصدى لمعالجة شأن من شئونه ، خاصة أنها تعد بالمئات .

والملاحظة الجديرة بالانتباه والتسجيل هى أن كل تلك الدراسات أهملت دونما عمد جانباً مهماً من جوانب شموخ هذه الشخصية . ونعنى بها ثقافته ..، ثقافته بوصفها دراسة قائمة بذاتها . حقاً أن غالبية – إن لم يكن كل هذه الدراسات قد لمست هذا الجانب على وجه من الوجوه ، إلا أنها لمسته كمعبر للوصول إلى غايتها ، ومن ثم جاءت أى ثقافته – كجزئية غائمة الملامح متقلصة القسمات لا تكاد تبين ، الأمر الذى لا يتسق وكونها المرتكز والمنطلق لأية دراسة عن أى شاعر خاصة إذا ما كان فى حجم أبى الطيب المتنبى .

ويوضح عنوان الدراسة الأغراض التى تدخل فى محيطه وتندرج فى إطاره وهى ثقافة هذا الشاعر الذى تلقف النقاد أدبه فى القديم والحديث على السواء

ولم يكن طريقنا فى هذه الدراسة سهلا لأسباب - أو عناصر - ثلاث، نوجزها فى :

١. وجود ذلك الكم الهائل من الدراسات التى تناولت الشاعر بأكثر من منظور و أكثر من مزاج ،وطبقاً لمناهج مختلفة .
٢. أن ما نحتاجه مغمور فى ثنايا هذه الدراسات والآراء ، أو فى بطون اللغة والأدب .
٣. بعيداً عن ذلك ، فإنه يمكن التعرف على ثقافة المتنبى من خلال أشعاره وحدها ، إلا أن إغفال وجهات النظر النقدية فى هذا الشعر قديماً وحديثاً- هو فى حقيقته إسقاط لا يصح ولا يجوز لجهد فكرى وإنسانى استمر طوال ألف عام .

وكان لابد من محاولة التوفيق بين العناصر الثلاثة ، وبحيث لا يطغى عنصر على عنصر.

وقد قسمنا الدراسة إلى ثمانية فصول وخاتمة سريعة فى الفصل الأول عرضنا بلمحة سريعة "ماهية الثقافة وتعريفها على المستوى الأنثربولوجى والأنسانى" ثم تحدثنا عن نشأة المتنبى وثقافته فى الفصل الثانى ؛ وفى الفصل الثالث تحدثنا عن التجديد عند المتنبى ،ثم كان الفصل الرابع عن ألفاظ المتنبى ومعانيه ...، بعد مرور

سريع على ما أثاره الأقدمون من أفضلية اللفظ أو المعنى .. وأتبعنا ذلك بجزئية عن تجديده وابتكاره في مطالعه، وحسن تخلصه ، وأيضاً شعره الملحمي والرمزي

وكان لابد من أن نفرد الفصل الخامس لتأثر الشاعر بالفلسفة اليونانية وانعكاس ذلك على شعره .

وبالدرجة نفسها من الأهمية كان لابد من الحديث عن أثر مصر في شعر المتنبي والذي أفردنا له الفصل السادس .

وبالطبع ، لا يمكن الحديث عن شاعر بحجم أبي الطيب دون أن نشير إلى ما قيل عن سرقاته الأدبية ، والذي أفردنا له الفصل السابع .

اما الفصل الثامن فقد تحدثنا فيه عن العاطفة الدينية عند الشاعر ، والتي تعد جزءاً مهماً من ثقافته . وذلك بالطبع إضافة إلى ما أثير حول الشاعر من اعتناقه مذهب القرامطة.

* * *

وتجدر الإشارة هنا إلى عدة مراجع قيمة كان لها أبعد الأثر في إثراء هذه الدراسة كما نطمح ،منها :"المتنبي بين ناقديه " ، وهي رسالة جامعية رصينة تناقش بشكل علمي وتتبع شامل دقيق كل الدراسات التي تحامل فيها أصحابها على الشاعر.

كذلك "كافوريات أبي الطيب" ،وهي دراسة نصية جادة وعميقة عن أشعار المتنبي في مصر. وأيضاً "الحكمة في شعر المتنبي " ، و" مع المتنبي " ،ثم ذلك العدد الخاص عن الشاعر من مجلة (المورد) وغيرها .

فى النهاية ...

أرجو أن أكون قد وفقت إلى خدمة هذه الدراسة وخروجه بالصورة المأمولة فإن أصبت فبعون من الله وتوفيقه ، وإلا فآمل التماس العذر ، فالولوج إلى ساحة مثل ذلك الشاعر محفوف بالمخاطر والأشواك ..ويكفى شرف المحاولة ....

فاروق حسان
عضو اتحاد الكتاب
سوهاج - ٢٠٠٣

الفصل الأول :

ماهية الثقافة

الثقافة هى الخبز الفكرى للفرد ، وبأهمية الخبز اليومى نفسها. والإنسان يعيش ويحيا بمقوماته الروحية والفكرية قبل المادية . وإذا ما كان الخبز هزيلاً من كلا النوعين تداعت إنسانية الفرد ودب الوهن فى المجموع .

والثقافة ليست ترفاً ولا ميزة لفئة ، وبقدر ما يرتفع مستواها بقدر ما يرتقى المجتمع ويزدهر "نوع" الحياة .

واللغة هى أساس الثقافة ، وهى التى جعلت التفكير التصورى ممكناً وعميقاً . لأن الكلمات هى فى حقيقتها أفكار ، وكل كلمة تعبر عن فكرة. ونحن حين نرث الكلمات من المجتمع نرث مئات الأفكار التى أوجدت لنا ثقافة بدائية ساذجة أولاً ثم متحضرة مركبة ثانياً ولو أن القردة مثلاً عرفت اللغة لما تأخر نمو أدمغتها ولكانت قادرة على إيجاد حضارة وثقافة لها .

وقد أحس الإغريق هذه الحقيقة – حقيقة أن الكلمة فكرة، والعكس فاشتقوا لفظة المنطق (لوجيك) من الكلمة"لوجوس".

واللغة اختراع جماعى ، وبالتالى فإن كل ثقافة تقتضى وجود جماعة، ولكن العكس ليس صحيحاً – وهى تتعلق باستعداد الإنسان للتفكير المجرد وللقدرة على الكلام ...لذا فإنها – أى الثقافة – خصيصة إنسانية .

ويكمن الوجه الإنساني في الثقافة في التعبير عن القيم والمُثل ، وفي الجهد الذي يبذله الإنسان ليفهم محيطه ونفسه ، ولكي يعين الطريق الذي سيتبعه بين قوى الطبيعة ولكي يسيطر مع أمثاله عليها وعلى أعماله وتعبيره .

ولأن الإنسان هو الوحيد دون سائر المخلوقات الذي يمتاز بالتفكير والقدرة على الفهم والاتحاد في السلوك ،فقد ترتب عليه بذلك المسئولية عن سلوكه. وبما أن هذه المسئولية عظيمة فإن مصيره متوقف عليها وعلى تقديرها .

وتقدير المسئولية إنما يكتسب بالتربية والتعليم اللذين هما عماد الثقافة وحظ الإنسان من الثقافة هو حظه من المدينة ، لأنها -أي الثقافة - من أهم عناصر المدنية إن لم تكن روحها . فالأمة المتمدينة هي الأمة التي تملك أكبر حظ ممكن من الثقافة . ولا غرابة إذن القول بأن قضية الثقافة هي قضية المدنية لأن رسالتها الأولى هي تحرير الفكر البشري من العوامل التي تؤخره ، وتحطيم جميع العراقيل التي تقف في طريق تقدمه ، وتمكينه من فهم المشاكل التي تعرض له وتوجيهه نحو السلوك القويم .

ولأن كانت الثقافة من عناصر الوحدة الفكرية للأمة ،فإن الاستقلال الثقافي أمر نسبي بين الأمم – ذلك لأن المدنيات الإنسانية المختلفة قد تحاكت وتمازجت خلال العصور ، فنشأ عن ذلك أثر مشترك من الثقافة بين الأمم .

ونشر الثقافة من العوامل الفعالة في إصلاح أي فساد في الخلق ، أو ضعف في الشخصية ، أو عجز عن تحمل المسئولية ، لأن الثقافة – كما سبقت الإشارة – لم

تعد ترفاً عقلياً بقدر ما هي وسيلة حياة نستطيع أن ندرك قيمتها لو تصورنا انتشار وباء في الورق يأتي على كل ما جمعت الإنسانية في خزائنها من كتب .

وإذا كانت المعرفة هي وسيلة السيطرة على الطبيعة والحياة وتسخيرها لخير الإنسان فإن – تدريب الذكاء هو خير وسيلة لتذليل الحياة بين يدى الإنسان

وأهم جهاز من أجهزة الثقافة وأعمقها أثراً هو الكتاب .وإن كان دوره قد تقلص في الآونة الأخيرة أمام التلفاز والسينما والمسرح، إلا أن الظواهر تشهد بأنه سوف يسترد مكانته في عالم تنبه أخيراً إلى خطر الأمية .

لكن...

ما هي الثقافة ؟؟؟؟

عندما نطرح هذا السؤال يفجؤنا تباين الإجابات وتعددها حتى إنه يمكن إحصاء مئات التعريفات لهذا المصطلح ،وهي تعريفات متنوعة ومتناقضة ووافرة العطاء لكنها أيضاً كثيرة الغموض والتلون ،ففي العلوم الإنسانية عامة لا تكاد توجد أحكام مطلقة تتوافر لها الصحة الكاملة، وأغلب ما يمكن الوصول إليه هو الاجتهادات العامة التي قد تخطيء أو تصيب ، وإن كان بعضها يحظى باتفاق عام

فالتعاريف التي اقترحت لتعريف الثقافة في المائة سنة الأخيرة على الأقل بلغت حداً من التنوع يصعب معه الاتفاق على تعريف ،وفي هذا الصدد يقول الأستاذ محمود محمد شاكر :

"والثقافة فاعلم تكاد تكون سراً من الأسرار الملثمة في كل أمة من الأمم وفي كل جيل من البشر. وهي في أصلها الراسخ البعيد الغور معارف كثيرة لا تحصى

متنوعة أبلغ التنوع لا يكاد يحاط بها ،مطلوبة فى كل مجتمع إنسانى للإيمان بها عن طريق العقل والقلب ،ثم العمل حتى تذوب فى بنيان الإنسان فتجرى منه مجرى الدم لا يكاد يحس به"

وإذا كان كروبر *Kroeber*، وكلوكهون *Kluckhohn* عالما الأنثروبولوجيا الأمريكيان قد صنفا – قبل ربع قرن –ما لايقل عن مائة وستين تعريفاً للثقافة فإن التفرعات التى تبلورت بعد ذلك تزيد ولا شك فى عدد هذه التعاريف المقترحة

أمام هذا يستغرب أن يكتب إدجار مورين *E Morin* بعد مرور قرن على أول تعريف أنثروبولوجى للثقافة :"الثقافة بدهية خاطئة ،منومة، ملغمة ، خائنة"

وقد اكتسبت كلمة "ثقافة"؛أو *Culture* معناها الفكرى فى أوروبا فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر ،فالكلمة الفرنسية كانت تعنى فى القرون الوسطى الطقوس الدينية – *Cultes* – ولم تعبر عن فلاحة الأرض إلا فى القرن السابع عشر أما فى القرن الثامن عشر . فقد عبرت عن التكوين الفكرى عموماً وعن التقدم الفكرى للشخص خاصة ..وهذا هو المعنى الموجود فى المعاجم الكلاسيكية .

ولأن الثقافة خاصة بالإنسان العاقل ملازمة له، ولأن هذا الأخير يتطور ويتغير بحسب الحقب الزمانية والمراحل التاريخية ، بحيث لا يمكننا أن نقول أن الإنسان هو فى كل العصور : الحجرى والبرونزى وعصر انبثاق الحضارات المعروفة ،ثم العصور الحديثة لذا فإن الإجابة عن مفهوم الثقافة لابد وأن تختلف باختلاف الأزمنة التى يطرح فيها السؤال . بل إن السؤال نفسه ليس – سؤالاً واحداً كما يبدو بل هو ينحل إلى عدة أسئلة من قبيل :

ما هي الثقافة التي بلغها الإنسان في هذه المرحلة من مراحل تطوره؟ .

وكيف يرى الإنسان هذه الثقافة؟.

وهل هي مجرد معلومات تقتنى ، وتراكم للمعرفة فقط ، أم هي مواقف متحركة ؟.

وهل هي ضرب من السلوك دون أن تكون سلوكاً ؟.

نحن إذن أمام لفظ كثير التداول لكنه – وفي الوقت نفسه – شديد الغموض بحيث والاحتمال كبير – يكون أي جدل حول الثقافة هو في الحقيقة جدل بين أشخاص لا يتحدثون جميعا عن شيء واحد .

ومع ذلك ففي استطاعتنا أن نستخلص من المعاني المتعددة لمعنى هذه الكلمة ... معنيين رئيسين :

أولاً: الثقافة كما يستخدمها علماء الاجتماع ،ويمكن تعريفها بأنها : ذلك الكل المعقد الذي يشمل المعرفة والاعتقاد والفن والقانون والأخلاق والعرف وأية قدرات ، كذلك جميع العادات الأخرى التي يكتسبها الإنسان بوصفه عضواً في المجتمع .

ويقترب من ذلك التعريف الوارد في قاموس أكسفورد من أنها :

الاتجاهات والقيم السائدة في مجتمع معين ،كما تعبر عنها الرموز اللغوية والأساطير والطقوس وأساليب الحياة ومؤسسات المجتمع التعليمية والدينية والسياسية .

ومن المتفق عليه أن هذا هو أول تعريف أنثروبولوجي للثقافة ، وقد اقترحه الإنجليزي *Tylor* (١٨٣٢ - ١٩١٧م) في كتابه "الثقافة البدائية " . وقد أوحى هذا التعريف فيما بعد بتعريفات حافظت كلها على مضمونه. منها مثلاً ما استوحاه جاي روشير *Guy Rocher* من أن الثقافة هي : مجموعة مترابطة من أساليب التفكير والإحساس - والعمل المتشكلة إلى حد ما ، تتعلمها ويشترك فيها جماعة من الأشخاص يُكَوِّنون مجموعة خاصة متميزة

ثانياً: الثقافة بمعناها الإنساني الرفيع ويمكن تعريفها بأنها:صقل الذهن والذوق والسلوك وتنميته وتهذيبه ،أو بأنها : ما ينتجه العقل أو الخيال البشري لتحقيق هذا الهدف .

ويلاحظ هذا المعنى يرتبط بالأصل اللغوي لكلمة *Culture* في اللغات الأجنبية وهي كلمة تعني تعهد النبات وحرثه ورعايته حتى يثمر (منها جاءت كلمة "*Agriculture* " بل أنه يرتبط بهذا المعنى نفسه في اللغة العربية ؛ لأن الأصل "ثقف" يحمل معنى التهذيب والصقل والإعداد . وهنا تكون الثقافة عملية رعاية وإعداد مستمر للعقل والروح البشرية) .

وفي تعريف آخر للثقافة نجد أنها في جوهرها لفظ جامع يقصد بها الدلالة على شيئين أحدهما مبني على الآخر، وهما طوران متكاملان:

- **الطور الأول :** أصول ثابتة مكتسبة تنغرس فى نفس الإنسان منذ مولده ونشأته الأولى حيث يشارف حد الإدراك البين جماعها كل ما يتلقاه عن أبويه وأهله وعشيرته ومعلميه ومؤدبيه حتى يصبح قادراً على أن يستقل بنفسه وعقله . وتفاصيل ما يتلقاه الوليد حتى يترعرع أو يراهق تفوت كل حصر بل تعجزه ، لكى تكون له (لغة) يبين بها عن نفسه ـ (معرفة) تتيح له قسطاً من التفكير يعنيه على من نشأ بينهم من أهله وعشيرته .
- **الطور الثانى:** فروع منبثقة عن هذه الأصول المكتسبة بالنشأة وهى تنبثق حين يخرج الناشىء من إطار التسخير إلى طلاقة التفكير

وإنما سَمَّيْتُ الطور الأول "إسار التسخير" لأنه طور لا فكاك لأحد من البشر منه منذ نشأته فى مجتمعه فإذا بلغ مبلغ الرجال استوت مداركه وبدأت معارفه ويبدأ العقل عمله المستتب فى الاستقلال بنفسه ، ويستبد بتقليب النظر فى المباحثة وممارسة التفكير والتنقيب والفحص ، ومعالجة التعبير عن الرأى الذى هو نتاج مزاولة العقل لعلمه فعندئذ تتكون النواة الجديدة لما يمكن أن يسمى ثقافة ..وفى الدائرة نفسها ، دائرة تعريف الثقافة ، ما زلنا ندور ونتلمس .

يقول الدكتور سمير نعيم أن الثقافة :هى ببساطة أنماط السلوك السائدة فى المجتمع البشرى – وتشمل كذلك المعتقدات والمبادىء الأخلاقية واللغة والموسيقا

والفن. وغالباً ما تحدث تغييرات في الثقافة نتيجة تأثير خارجي. أما التطويع الثقافي :فهو عملية تقبل وامتصاص لعناصر ثقافة أخرى ، مثل ما يطرأ على ثقافة أحد المجتمعات المتأخرة نتيجة اتصاله الطويل بمجتمع ثقافته أكثر تطوراً

ويقول الدكتور هادي نعمان الهيتي [٣] أن الثقافة : خصيصة إنسانية ، فهي تميز الإنسان عن سائر الحيوانات الأخرى التي تعتمد في طرق حياتها على غرائز لذا حافظت هذه الحيوانات على أسلوب حياتها دون تحوير يستحق الذكر منذ آلاف السنين بينما استطاع الإنسان أن يقلب طرق حياته ، لذا عد الإنسان حيواناً ثقافياً .

ويضيف:

إن الشخصية لا تتشكل مع ولادة الطفل ، بل يكتسبها بفعل تفاعله واتصاله ببيئته قبل كل شيء ، ولذا تتخذ شخصية الطفل الصيغة التي تطبعها بها المؤثرات الثقافية .أي أن شخصية الطفل تتحدد له بفضل ما يمتصه من مجمل عناصر الثقافة .. لذا فإن الشخصية هي وليدة الثقافة أولاً والتي يمكن أن تكون عاملاً من عوامل إنضاج ذكاء الأطفال وعملياتهم العقلية ، أو عامل كبت لها يمكن للمجتمع أن يطفئها فتخمد أو يلهبها فتنمو.

ويرد كلارك ويسلر *Wissler* . *C* الأنماط الثقافية إلى تلك الأستعدادات الطبيعية عند الإنسان لتقبل الثقافة : أي أنه يرجعها إلى الغرائز والحوافز الفطرية

1- د . هادي نعمان الهيتي /ثقافة الأطفال/ سلسلة عالم المعرفة ، الكويت / العدد ١٢٣مارس ١٩٨٨م .

التى تدفع الإنسان دفعاً إلى المشاركة فى الثقافة التى تسود المجتمع الذى يعيش فيه وهذا معناه أن الإنسان يؤسس الثقافة دائماً ويشارك فيها لأنه مضطر لذلك بطبعه ولا يملك عن ذلك بديلاً . وهذا فى الواقع هو ما يعطى الثقافة صفة الاستمرار.

والمعروف أن الذى يعطى الثقافة طابعها المميز ومقوماتها الخاصة هو وجود طائفة من السمات الرئيسة العامة التى تسود المجتمع وتفرض نفسها عليه والتى تعرف باسم العموميات *Universals* ، وتتمثل هذه العموميات الثقافية فى: وحدة المشاعر ووحدة التقاليد والعادات والممارسات التى يشترك فيها كل أعضاء المجتمع كالشعائر والمعتقدات الدينية واللغة وما إليها من السمات التى تُعَدُّ أسساً جوهرية فى تكوين المجتمع

وهكذا ، لم يقتصر مفهوم الثقافة على تعدد تعريفاتها وتتابع الدراسات عنها بل ظهرت تخصصات عديدة تعنى بدراستها مثل :

علم الثقافة *Culturology* الذى يرى الثقافة مسألة قائمة بذاتها وأن دراستها تشكل مجالات استقلالية .

وعلم الأنثروبولوجيا الثقافية *Cultural Anthropology* الذى يركز على دراسة الثقافة وعناصرها وسماتها . بالإضافة إلى ظهور كثير من المفاهيم ذات العلاقة بالثقافة .

كالتراكم الثقافى *Cultural Accumulation* .

والصراع الثقافى *Cultural Conflict* .

والاتصال الثقافى *Cultural Contact*.

والتكامل الثقافى *Cultural Integration*.

والتغيير الثقافى *Cultural Change* .

وكما تعددت تعريفات "الثقافة" فقد كثرت الاجتهادات أيضاً فى تعريف " المثقف". وربط بعضهم بين المثقف والتعليم ،ورأى البعض الآخر أن المثقف شخص متميز فى مجال المعرفة والأدب ،يتفرغ للعمل الفكرى ، ويعبر عن آرائه ومواقفه بالكتابة. ورأى فريق ثالث توسيع نطاق التعريف بحيث يمكن أن يضم جميع من حصل على أى نوع أو كمية من التعليم الرسمى .

وعلى الجانب الآخر نرى آخرين لم يشترطوا التعليم كصفة ملازمة للمثقف ورأى هؤلاء أن – العبرة بالوعى والحس القومى وإدراك القضايا الرئيسة للمجتمع لأن الثقافة وعى يربط الإنسان بوطنه ، بأمته ، بمجتمعه ، بمستقبل متطور أو بعيد

ومن هذا المنطق فليس كل مثقفٍ مثقفٌ لأنه حصل على شهادة أو لأنه يُحْسِنُ علماً أو حرفة ما [٣] .

وقد تطرق النقاش إلى تقسيم المثقفين حسب خبراتهم وتخصصاتهم ، بل حاول البعض تصنيف المثقفين على ضوء علاقتهم بالسلطة ، فظهرت صفات مثل وعّاظ السلاطين ، ومثقف الجماهير ، والمثقف الشقى ، والمثقف العميل، والمثقف الشهيد ، والمثقف الأبله ....إلخ .

1- د. مصطفى عمر/ مجلة شؤون عربية / العدد ٥٤ .

وتجدر الإشارة إلى أنه إذا كان الشعر فى العالم القديم يعتبر جانباً من جوانب الثقافة وملحقاتها ، فإن الملاحظ أن الشعر العربى وبخاصة فى الحقب الأولى من الحضارة كان فى الصميم من الحضارة العربية . فنحن إذا نحينا الشعر جانباً لا نكاد بين أيدينا وفى عقولنا شيئاً ذا بال ، ذلك لأن حضارتنا العربية القديمة وضعت فى الشعر أكثر مقوماتها وأعمقها .

وإذا كانت هناك حضارات قامت على أساس من العمارة ، أو التعامل مع الملاحم والمسرحيات أو النحت والتصوير ، فإن الحضارات العربية قد اعتمدت على ما اصطلح على تسميته "بالشعر الغنائى" .

ويحضرنا قول أرسطوطاليس :

(الشعر فطرة فى الإنسان ، فالإنسان مفطور على حب الاستطلاع والرغبة فى المعرفة ، والميل إلى الإيقاع والانسجام ، والتعبير عن هذه الميول يولد فى بادىء الأمر الشعر الارتجالى ، ثم كانت تقسيماته بعد ذلك .

* * *

من مجمل ما تقدم ، فإنه يمكن تلخيص الثقافة بشكل عام فى :

١. أنها خصيصة إنسانية .
٢. أن درجات تقبلها تتفاوت تبعاً للاستعداد الفطرى عند الإنسان
٣. أنها صقل الذهن والذوق والسلوك .

٤. أنها جماع ما يكتسبه الطفل ويتلقاه من أبويه وأهله وعشيرته ومعلميه ومؤدبيه

٥. إنها ممارسة التفكير ومعالجة التعبير عن الرأى .

٦. إنها تنتقل من مجتمع أكثر تقدماً وتطوراً إلى مجتمع أقل تقدماً

٧. أن البيئة يمكن أن تكون من عوامل إنضاج ذكاء الطفل ويمكن أن تكون عامل كبت له

وعلى ضوء ذلك ...

وفى حدود ما سنتعرض له ...

فهل يمكن أن نرصد نصيب أحمد بن الحسين بن عبد الصمد الجعفى الذى اشتهر فيما بعد باسم أبي الطيب المتنبى من الثقافة بمفهوم عصره للثقافة ؟؟؟؟

وهل لنا أن نتعرف على ملامح الخطو الأول فى بيئته الضيقة (المنزل / الأسرة) ،ثم البيئة الواسعة (المجتمع) بملمحه الاجتماعى والسياسى والفكرى ، واللتين شكلتا وجدان شاعرنا وصقلت موهبته الفطرية وجعلت منه أفضل شعراء العربية كما يرى بعض النقاد ؟؟؟؟

الفصل الثاني :

المتنبي ..النشأة الثقافة

يتفق ثقاة المؤرخين على أن أبا الطيب هو :أحمد بن الحسين ، ثم يختلفون فيما بعد هذا فيقول بعضهم : الحسين بن الحسن بن عبد الصمد ، ويقول آخرون ابن مرة بن عبد الجبار.

وقد تعود الناس أن يؤمنوا أن أبا الطيب رجل عربي خالص النسب ، ينتهي من قبل أبيه إلى " جعف بن سعد العشيرة" ومن قبل أمه إلى "همدان" وهما حيان من أحياء اليمن فيما يقول المؤرخون النسابون .

ومن الجائز أيضاً أن يكون من عرب الجنوب جعف الأب همداني الأم . لكن الذي لا شك فيه هو أن - ديوانه لا يثبت هذا ولا يؤكده ،بل لا يسجله ولا يذكره ومن يدري لعل ديوانه ينفيه ، ولعله ينفيه نفياً وهو إلى الصراحة أدنى منه إلى الإشارة والتلميح [1].

إلا أن المؤكد أنه ولد بالكوفة سنة ٣٠٣هـ ، وفتح عينيه على الدنيا في حي "كندة" وهو حي نزله المهاجرون العرب الذين نزحوا أيام الفتح إلى هذه البقاع

وفي رواية علي بن حسن البصري [2] :سألت أبا الطيب أحمد بن الحسين المتنبي عن مولده فقال:ولدت بالكوفة سنة ثلاث وثلثمائة وهذا على وجه التقريب لا التحقيق ونشأت بالبادية والشام .

ونرى في شعره ذكرياته في هذا الحي "كندة" :

أمسًني السكون وحضرموتا .... ووالدتي وكندة والسبيعا

هل كان المتنبي يعرف أباه ؟؟؟؟.

وقال المؤرخون: نعم ، ولم يقل المتنبي شيئاً .

فليس في ديوانه ذكر للرجل الذي أنجب للقرن الرابع الهجري شاعره العظيم لم يمدحه المتنبي ولم يفخر به، ولم يرثه ولم يظهر الحزن عليه حين مات .أكان ذلك لأنه عرفه ولم ير له خطراً ، ولم ير في ذكره ما يرفع من شأنه ويرد عنه كيد وحسد الحاسد ؟؟؟.

أم لعله يزدريه ويكبر شعره عن أن يقف عنده مادحاً أو هاجياً ، أو نادباً أو راثياً [٣]؟؟؟.

إننا لا نرى المتنبي دعياً مجهول الأب ولا شريف الحسب . ولكننا نراه رجلاً من أواسط الناس، عرفه أبو الطيب ورافقه .وقد وفر له هذا الأب بعض وسائل الرفاهية فبعث به إلى الكتاب كما يبعث غيره من أواسط الناس [٤]

ولا يخدعنا المتنبي عن هذا الأب عندما يقول :

أنا ابن من بعضه يفوق أبا البا .... حث والنجل بعض من نجله

ذاك لأن شهرة الأبناء لا تدل على شهرة الآباء ولا على علو قدرهم ، بل إن أبناء الخاملين كثيراً ما يبزون أبناء السراة النابهين .

ويرى الدكتور شوقي ضعيف [٥] أن إغفال المتنبي لأبيه ليس قاصراً على المتنبي وحده ، وإنما يشترك معه في ذلك كثير من الشعراء العباسيين الذين لا يشك في نسبهم العربي كالبحتري مثلاً ، الذي نجد في ديوانه قصيدة (تائية) افتخر فيها ببعض بني عشيرته حتى أنه سماهم آباءً له وأجداداً. وهو لا يعني الأبوة المباشرة إنما يقصد الفخر بمن تعالت أصواتهم بالأذان في موطنه .المهم أن ديوان البحتري

يخلو من الحديث عن أبيه أو الحزن عليه حين مات ،كما يخلو أيضاً من ذكر أمه والبكاء عليها حين ماتت .فهل نرتب على ذلك أنه كان متهماً فى نسبه وأنه لم يكن يستطيع الحديث عن أبيه وجده لضعف أسرته ؟؟.

كل ذلك لا نستطيع أن نقوله عن البحترى وبالمثل لا نستطيع أن نقوله عن المتنبى ومعروف أنه كان كثير الخصوم شديد الإحساس بعبقريته واستعلائه على أقرانه مما كان يملأ قلوبهم حفيظة وغيظاً ،ولو كان مدخول النسب لأتوه من هذه الثغرة مراراً وتكراراً .

ويزعم بعض المؤرخين أن أباه كان سقاءً فى الكوفة . ويذكر أبو الحسن العلوى عن أبى المتنبى أنه كان "يستقى لنا ولأهل المحلة"

وقد أشار بعض الشعراء إلى هذه المهنة حين هجاه بقوله:

أى فضــل لشــاعر يطلــب الفضــ ـــل مــن النـــاس بكــرة وعشــيا
عــاش حينــاً يبيــع فــى الكوفــة المــا ء وحينــاً يبيــع مــاء المحيَّـا[٦]

وأيضاً قال عنه ابن لنك المصرى [٧] :

أعطيــتم المتنبـــى فـــوق منيتـــه فزوجـــوه بـــرغم أمهـــاتكم
لكــن بغــداد جــاد الغيــث ســاكنها نعــالهم فــى قفــا الســقاء تــزدحم

ويرى الملاح [٨] أن أبا المتنبى كان دقيق الأطراف فلقبه الناس بلقب (عِيدان السَّقاء) بكسر العين والسين ، لأن الرجل كان طويل الأطراف دقيقها ولذلك

شبه بالعيدان التى تنصب ليقام عليها السقاء وسهل على حساده فيما بعد أن يصحفوا كلمة (عيدان) إلى (عبدان) ، و"السِّقاء" إلى "السَّقاء" .

والسؤال هنا :

هل تحتاج العبقرية إلى نسب تتكىء عليه ؟؟،ولكنها اعتبارات عصره ومفاهيمه .

وإن كان الغموض يحيط بنسب المتنبى ، إلا أن نشأته بالكوفة لا خلاف عليها. وكانت الكوفة من أجمل بلاد العراق ، وقد وصفها محمد العطاردى بمجلس عبد الملك بن مروان بقوله [٩]:

الكوفة سفلت عن الشام ووبائها ، وارتفعت عن البصرة وحرها. إذ أتتنا الشمال ذهبت مسيرة شهر على مثل رضراض الكافور [١٠] ،وإذا ذهبت الجنوب جاءتنا ريح السواد ووردہ وياسمينه واترنجه ، ماؤنا عذب وعيشنا خصب.

تلك هى الكوفة التى ولد بها الشاعر وأشرف منها على الدنيا .جو معتدل وماء عذب ، وجو تعبقه رائحة الورد والياسمين .

ومن خلال بعض أبيات وردت فى ديوان المتنبى ، يرسم الدكتور زكى المحاسنى [١١] صورة لصباه فيراه مهزول الجسم منتفض الأعصاب جدى الملامح سوداوى المزاج :

يجمعت بن جسم أحمد والسقـ ـــم وبين الجفون والتسهيد

كفى بجسمى نحولاً أننى رجلٌ لولا مخاطبتى إياك لم ترن

ثقافته :

لابد من الإقرار بداية أن المرء لا يصير أديباً لمجرد أنه قرأ وحصل فالأدب يعتمد بشكل رئيس على الموهبة التي تسير جنباً إلى جنب مع الثقافة والتمرين المستمر على فنون التعبير الأدبي المتباينة فالشاعر وإن درس فنون الشعر مثلاً فإن دراسته لتلك الفنون لن تصنع منه شاعراً . فهو شاعر قبل وقوفه على فن قرض الشعر . فالموهبة الشعرية مفطورة في الشاعر وليست مضافة إليه إضافة . صحيح أن الموهبة تحتاج إلى ما يعمل على صقلها وتهذيبها بالمناسب من الخبرات والمعارف ، لكن تلك التغذية والرعاية لا يخلقان شاعراً ، بل تعملان فقط على تحسين وتجويد شعره .

وفي الجاهلية آمن العرب أن الشعر من عمل الشياطين ، وأن لكل شاعر شيطانه الخاص به يقول الشعر على لسانه... وفي ذلك يقول الراجز (١٢) :

إني وإن كنت صغير السن ... وكان في العين نبوٌّ عني

فإن شيطاني أمير الجن ... يذهب بي في الشعر كل فن

والعرب وإن آمنوا بذلك ، إلا أنهم سرعان ما أضافوا إلى الإلهام والفطرة جهد الشاعر المثمر، وأيقنوا بطول الأناة وإمعان النظر والتدقيق الشديد مما يزيد الشعر وضوحاً وقوة .

ولهذا الشعور بالجهد فى قرض الشعر يقول الحطيئة :

الشعر صعب وطويل سلّمه   إذا ارتقى فيه الذى لا يعلمه

زلت به إلى الحضيض قدمه   يريد أن يعربه فيعجمه

وقد كان المتنبى من هؤلاء الذين حباهم اللّه - سبحانه وتعالى - بالموهبة الشعرية ، صقلها - فى البداية- ترديده على الكتّاب حيث تعلم القراءة والكتابة وقرأ القرآن الكريم كله أو بعضه . وتلقى أصول الدين ، وتعلم اللغة العربية لغة وإعراباً وشعراً .

وقد كان للكتاب تأثيره الواضح على عقل الشاعر وقلبه ، ينبئنا به ديوانه الذىحفظ له مقطوعات من الشعر قالها وهو يختلف إلى هذه المدرسة .

ولنتأمل هذين البيتين :

لا تحسن الوفرة حتى ترى   منشورة الضفرين يوم القتال

على فتى معتقل صعدة   يعلها فى كل وافى السبال

إننا نلمس فيهما النزوع المبكر إلى الحرب و القتال ، كما نلحظ الضغينة التى تضطرم فى قلبه الغض فهل للبيئة الدامية التى كان يعيش فيها - نتيجة لإغارات القرامطة على الكوفة - نصيب فى تشكيل الوجدان الغض ؟؟؟.

ويقول الرواة أن المتنبى خرج من الكوفة مع أبيه إلى البادية فأقام بها حينا ثم عاد منها وقد نما جسمه وعقله ،وفصح لسانه وأصبح فتى يملأ العين والأذن

ولسنا ندرى متى ذهب أو الطيب إلى البادية ولا كم أقام بها . ويحدثنا العلوى أنه أقام بها سنتين . وقد روى ابن الأثير وغيره أن القرامطة أغاروا على الكوفة سنة ٣١٢هـ ، فلعل أبا الطيب خرج إلى البادية مع أهله حينئذ [١٣] .

ويقول ابن الأثير [١٤] :إن الفتى تزود بأزواد الفصاحة بتبديه المبكر أى رحيله إلى البادية - الذى اضطر إليه عندما فر به أبوه إليها من وجه القرامطة الذين أغاروا على الكوفة سنه ٣١٢هـ وسكفوا فيها الدماء وسبوا النساء ونهبوا الأطفال ففر الناس على وجوههم هولاً وفزعاً .

ومهما كانت المدة التى قضاها الصبى بالبادية فقد أفادت فى تكوين شخصيته ، وتلقيه السليقة العربية ومشخصات البداوة وما تشتمل عليه من شظف وقسوة ، وأذكت فى نفسه ما ترعرع فيها من مخايل الفروسية والجد .

وقد روى الخطيب عن محمد بن يحيى العلوى عن أبى الطيب أنه : صحب الأعراب فى البادية فجاءنا بعد سنتين بدوياً فحًّا[١٥] .

كما أنه أخذ عن شيوخ البادية كثيراً من أوابد اللغة وشواردها . ورجع إلى الكوفة شاعراً حاذقاً عالماً باللغة وأسرارها . وتنقل بين بادية العراق إلى بادية الشام ، ومن البدو إلى الحضر ، ومن المدر إلى الوبر متردداً بين القبائل ومخايل العبقرية مبشرة منه بخير كثير [١٦] .

وعن الأثر العميق الذى بصمته به البادية يقول الصاحب بن عباد وهو أحد الذين حملوا على المتنبى حملة شعواء :

إنه رجل يتفاصح بالألفاظ النافرة والكلمات الشاذة ، حتى كأنه وليد خباء أو غذى لبن لم يطأ الحضر ولم يعرف المدر (١٧) .

ومهما يكن من أمر ..

وسواء امتدت رحلته إلى البادية سنتين أو أكثر ...

فإن أثرها يبدو أبعد بكثير ما يظنه المؤرخون القدامى والمحدثون من كونها رحلة للتثقيف أو التريض أو الهروب من إغارات القرامطة .إن ملامح البادية ما فارقت قصيدة واحدة من قصائده . لقد مزج إحساسه بالبداوة وعمَّق إحساسه فيها

كم زورةٍ لك فى الأعراب خافية　　　أدهى وقد رقدوا من دورة الذيب

وقد صور ممارسته للبادية مقيماً ومرتحلاً :

أواناً فى بيوت البدو رحلى　　　وآونة على قتدِ البعير

وهو هنا يصف طول ارتحاله وكثرة تردده على البوادى وإفراده " الأوان" فى أول البيت ، وجمعه فى شطره الثانى إشارة إلى أن ارتحاله كان أكثر من نزوله

وطوال حياته لم تفارق البادية عقله وقلبه وشعره ....

ففيها امتد خياله .. وعلقت بذهنه بقاعها وخلواتها ، وجرت على لسانه لغتها فى تصوير سلاحها وخيلها وإبلها وكأنه واحد من أهلها حتى بعد تجواله فى البلاد ومجالسته الملوك والكبراء وأهل الترف والحضر.

ويرى صاحب" سيكولوجية الإبداع"(١٨) أن الفنان أحياناً ما يكون مشدوداً إلى الخارج وإلى البعيد والغريب من مجتمعه حيث يجد أن ما يكتسبه هناك إنما

هو بمثابة المقومات والدعائم التى تشد من أزره فى فنه المحلى . فهو باستيعابه لغير ما هو موجود فى بيئته يكون قد بعث روحاً جديدة فى فنه البيئى ويكون قد ساعد بالتهجين الفنى على شق خط جديد .

وبعد عودة المتنبى من البادية اشتهر بين أهل محلته بحب العلم والأدب وبملازمته للوراقين الذين لم يكونوا مجرد تجار للكتب وإنما كانوا - فى أغلب الأحيان- أدباء ذوى ثقافة يسعون للذة العقلية من وراء الحرفة التى تتيح لهم القراءة والإطلاع ، وتجذب إلى دكاكينهم العلماء والأدباء [١٩] .

كما أنه اختلف إلى حلقات العلماء ويبدو أنه فقد أباه فى تلك الحقبة فأكب على التعزى بالتزود بالعلم والثقافة .

وانعقدت يف تلك الحقبة صلة وثيقة بينه وبين شخص متفلسف متصل بالتصوف يكنى أبا الفضل. وله فيه قصيدة "ميمية" غلا فى مدحه بها غلواً شديداً مستعينا بنظرية الحلول الصوفية. ومنهم : عودة قرأ على أكابر العلماء فى عصره ومهم : الزجاج أبو إسحق والسراج أبو بكر . كما قرأ على نفطويه وابن درستويه ولم يترك كبيراً من علماء عصره دون أن يتصل به ويتلقى عنه .

وقد لازم الوراقين واتخذ كراريس يودعها شعره وخواطره ونظراته فيما يروقه أو لا يروقه من شعر معاصريه أبى تمام والبحترى وبشار وأبى نواس . وكانت هذه الكراريس عدته وزاده فى تجواله ورحيله .

وقد نبه بعض الباحثين المعاصرين عندما ناقشوا ما جاء بنسخة ديوانه المخطوطة بدار الكتب المصرية والتى كتبت بخط مغربى [٢٠] حول لقائه بأصحاب المبرد ،وقراءته على أكابرهم كأبى إسحق الزجاج وأبى بكر السراج وأبى الحسن الأخفش ، ولقائه أصحاب ثعلب وقراءته على أبى موسى السكرى ، ونفطويه وابن درستويه ، ثم لقائه بخاتم الأدباء عالم عصره أبى بكر بن دريد وقراءته عليه ولزومه له كذلك لقائه أكابر أصحابه كأبى على الفارسى وأبى القاسم عمر بن سيف البغدادى وأبى عمران موسى .

نقول أن هؤلاء الباحثين شكوا فى لقاء أبى الطيب بكل هؤلاء واعتمدوا فى شكهم على أن الزمن لم يسمح للشاعر بمعاصرة بعضهم كما لم يسمح له بالتلمذة على كثير منهم ذلك لأن المتنبى ولد عام ٣٠٣هـ بينما مات الزجاج سنة ٣٠١ أو سنة ٣١٠هـ ، ومات أبو موسى الحامض سنة ٣٠٥هـ ، والأخفش سنة ٣١٥هـ ، واب السراج سنة ٣١٦ هـ [٢١].

وإن كانت المراجع لم تضع أيدينا صراحة على شيوخ أبى الطيب وأئمته ، فقد صورته لنا مغيراً على دكاكين الوراقين ، يتلقف العلم أنى وجده ، يجمع المؤلفات ويقضى الليل ساهراً يقلب أوراقها ويرتشف رضابها ويعقب عليها .

ويروى عن الأصفهانى فى كتابه"إيضاح المشكل" أن المتنبى كان يكثر من ملازمة الوراقين وكان علمه من دفاترهم وأخبرنى وراق - يقول الأصفهانى - كان يجلس إليه يوماً ، قال :

ما رأيت أحفظ من هذا الفتى قط ، فقلت له : كيف ؟؟ قال كان اليوم عندى وقد أحضر رجل كتاباً من كتب الأصمعى فى نحو ثلاثين ورقة لبيعه ، فأخذ - أى المتنبى - ينظر فيه طويلاً فقال الرجل يا هذا أريد بيعه وقد قطعتنى عن ذلك ، فإن كنت تريد حفظه فى هذه المدة فبعيد ، فقل له المتنبى إن كنت حفظته فما عليك ؟؟. قال لك الكتاب ، قال فأخذت الدفتر من يده فأقبل يتلو إلى آخره ثم استلبه فجعله فى كمه فعلق به صاحبه وطالب بالثمن ، فقال : ما إلى ذلك سبيل لقد وهبته لى (٢٢) .

وهذه الرواية وإن كانت المبالغة ظاهرة فيها ،تومض بالشهرة التى حظى بها المتنبى فى صباه من قوة الحفظ ، ومثابرة على الدرس ، وحدة فى الذكاء ، واختلاف إلى أماكن الثقافة لينهل منها كل ما يصادفه وكأنه يعد نفسه لليوم الذى يقف فيه على قمة شعراء العربية .

وقد هاجر المتنبى إلى بغداد - حاضرة الخلافة - طلباً للاستزادة من العلم وأخذ ينقض على كل ما كان بمساجدها من حلقات المعرفة وخاصة فى اللغة والنحو والشعر ويلتهم كل ما بها التهاماً .

وإذا ما تجاوزنا عما يرويه مترجموا المتنبى وشراح شعره من أخبار تمكنه من الأدب واللغة وتطلعه فيهما ورافقناه فى مناظرته المعروفة مع أبى على الحاتمى التى استغرقت بضعة مجالس شهدها نفر من الأدباء واللغويين والنحاة،لأدركنا أننا أمام رجل ليست موهبته فى الشعر هى كل ما يملك ، بل نحن بإزاء رجل تمثل

خلاصة الموروث الشعرى عند العرب بدءاً بأصحاب لمعلقات ومن سبقهم ، وانتهاءً بمعاصريه من شعراء زمانه .

لقد حفظ أشعارهم ووعى معانيهم ، وتتبع أخبارهم وما أخذه بعضهم عن بعض ، وسجل ما أخذه عليهم وانتقاداته لهم.

لقد أحاط علماً بما أخذه (٢٣):

أبو نواس من ذى الرمة ومن جرير ومن الأعشى وغيرهم . وتتبع ما أخذه النابغة من امرىء القيس . وما أخذه زهير من مهلهل . وما أخذه الأعشى من عمرو بن قميئة ، وما أخذه عبيد بن الأبرص من المرقش الأكبر . وما أخذه الأخطل من المسيب ابن علس . وما أخذه جرير والفرزدق من الأعشى . ثم أخذه أبو تمام من أبى نواس ومن الأخطل .

كان يستظهر ذلك كله ويجادل خصمه معتمداً على ذاكرة حديدية . لم يرتجع كتاباً ، ولم يعتمد بين يديه صحيفة ،فقط ذاكرة عجيبة وقدرة على الحفظ ومثابرة على المطالعة .

وينقل الحسن بن سعيد رواية المتنبى بحلب أنه عاد من دار سيف الدولة آخر النهار فقدم له شمعة ومرفع دفاتره ، وكانت تلك عادته كل ليلة حتى مضى من الليل أكثره ثم نام (٢٤) .

وكان كما صوره معاصره أبو القاسم الأصفهانى يحفظ ديوانى الطائيين أبى تمام والبحترى ويستصحبهما فى أسفاره . إضافة إلى ما كان يستصحبه من مدوناته ودفاتره التى كان أكثر إشفاقاً عليها لأنه انتخبها وأحكمها قراءة وتصحيحاً .

ويروون أن أبا على الفارسى – قد عُر عنه إكثاره من نقل اللغة وإطلاعه على غريبها حتى أنه لا يُسأل عن شىء إلا واستشهد له بكلام من النثر والشعر – سأل المتنبى : كم لنا من الجموع على وزن "فِعُلى "؟.

فقال المتنبى فى الحال : حِجلَى وظِرْبَى . قال الفارسى : فطالعت كل كتب اللغة ثلاث ليال علّى أجد لها ثالثاً فلم أجد .

وعلى ضوء ما سردناه ، فنحن لا نبالغ إذا قلنا أن ثقافة أبى الطيب المتنبى الأدبية ومنذ يفاعته كانت مكتملة . فهو لم يقل الشعر ركيكاً ضعيفاً فى حداثته ولكنه بدأ قوياً واثقاً ذا خيال خصيب وقدرة على تطويع الوزن واللغة .. وانظر قوله

أبلى الهوى أسفاً يوم النوى بدنى ... وفرق الهجر بين الجفن والوسن

روحٌ تردد فى مثل الخلال إذا ... أطارت الريح عنه الثوب لم يبن

كفى بجسمى نحولاً أننى رجل ... لولا مخاطبتى إياك لم ترنى

وتلك القصيدة التى جاء بديوانه أنه قالها فى صباه تؤكد أننا أمام شاعر قوى العبارة صحيح المعنى ، لُقّن أصول اللغة تلقينًا كافياً ، وكيف لا وقد كان مصاحباً وعلى الدوام لديوانى أبى تمام والبحترى حتى أن الرواة يروون أنه لم يفارق هذين الديوانين حتى قتل وفى هوامشهما بعض التعليقات والحواشى بخطه

الهوامش

١. د.طه حسين ، مع المتنبى ، دار المعارف ، مصر ١٩٧٦ .

٢. عبد العزيز الميمنى ، زيادات ديوان المتنبى .

٣. مع المتنبى ، مرجع سابق .

٤. د . محمد عبد الرحمن شعيب، المتنبى بين ناقديه ؛دار المعارف مصر، ١٩٦٤.

٥. د. شوقى ضيف ، فصول فى الشعر ونقده ، دار المعارف ، مصر ١٩٧١.

٦. وفيات الأعيان ، جـ١ ، طبعة بولاق .

٧. عبد الفتاح الملاح ، المتنبى يسترد أباه ، دار التآخى ، بغداد ١٩٧٤

٨. السابق .

٩. د. زكى المحاسنى ، المتنبى ، دار المعارف ، مصر، ١٩٦١.

١٠. مادق من الحصى .

١١. المتنبى ، مرجع سابق .

١٢. عبد الفتاح السيد الدماصى ، النقد الأدبى التطبيقى ، المطبعة العربية ، مصر، ١٩٧٦ .

١٣. عبد الوهاب عزام ، ذكرى أبى الطيب بعد ألف عام ، طبعة الجزيرة ، بغداد ، ١٩٣٦.

١٤. الكامل فى التاريخ ، جـ ٢ .

١٥. يوسف البديعى ، الصب المنبى عن حيثية المتنبى ، دار المعارف مصر ، ١٩٦٣ .

١٦. الثعالبى ، يتيمة الدهر ، دمشق ، ١٣٠٤هـ .

١٧. الكشف عن مساوىء شعر المتنبى .

١٨. يوسف أسعد ، سيكولوجية الإبداع ، سلسلة دراسات أدبية ، الهيئة العامة للكتاب ، مصر ، ١٩٨٦ .

١٩. د. أحمد شلبى ، تاريخ التربية فى الإسلام ، دار المعارف ، مصر

٢٠. ديوان المتنبى ، مخطوط بدار الكتب المصرية ، تحت رقم ١٢٩

٢١. الصبح المنبى ، مرجع سابق .

٢٢. خزانة الأدب، جـ ١ ، طـ القاهرة .

٢٣. الحاتمى ، الموضحة .

٢٤. الصبح المنبى ، مرجع سابق .

الفصل الثالث :

التجديد عند المتنبي

كل شاعر عظيم ينبغى أن يكون شعره كله محاسن إلا ما يقع بين الحين والحين من هفوة أو تقصير أو اعتلال مزاج . وإذا كانت مساوىء الشاعر العظيم معدودة فمحاسنه ينبغى أن تأبى على العد . وهَم الأديب الأول قديماً وحديثاً هو تقديم الجديد فيما يكتب أو يقول . فأهم مقومات العمل الأدبى هو أن يكون متسماً بالجدة . فالأديب الذى يكتب كلاماً معاداً لا يعد أديباً مبرزاً . وحتى إذا انتحى الأديب إلى أحد الموضوعات المطروقة كأن يتعرَّض للحب أو الحرية مثلاً فإن عليه أن يثبت أنه لا يلوك كلاماً مستهلكاً ، بل هو يقدم زوايا جديدة فى الموضوع المطروق

والتجديد أو الابتكار من أسمى ما يقدمه العباقرة للبشرية ، ومن أجَل ما يهدى إليها فى أية زاوية من زوايا الحياة ، لأنه نوع من السبق المُعيَّن على التقدم والنهوض ، ولون من ألوان كشف المجهول الذى هو غاية كل مفكر عامل على إسعاد بنى الإنسان .

وإذا كان الاهتداء إلى التجديد فى محيط الحياة المادية من الصعوبة بحيث لا يتيسر إلا للقليل الأفذاذ بعد الجهد المضنى والنصب الطويل ، فإنه فى مجال الخواطر الأدبية وغيرها من سائر الدراسات أشد من ذلك صعوبة وأجل خطراً لعدم وجود شواهد بادية ترشد وتقود إليه .

من أجل ذلك يهتم النقاد بمعرفة الجديد لدى كل أديب ، لمعرفة الثروة الفنية الجديدة التى أضافها إلى رصيدنا الأدبى الذى جمعناه على تقلب العصور

والجديد والتجديد لا يمكن أن يكون مفهوما ذا معنى إلا أن ينشأ نشأة طبيعية من داخل ثقافة متكاملة متماسكة حية من أنفس أهلها ، ثم لا يأتى الجديد إلا من متمكن النشأة فى ثقافته ، متمكن فى لسانه ولغته ، متذوق لما هو ناشىء فيه من آداب وفنون وتاريخ مغروس تاريخه فى تاريخها وفى عقائدها ، فى زمان قوتها وضعفها ، ومع المنحدر إليه من خيرها وشرها ، محساً بذلك كله إحساساً خالياً من الشوائب (1) .

ونحن وإن كنا سنورد فيما بعد بعض المآخذ التى تسىء لشعر المتنبى إساءة نسبية كما أجمع النقاد ،فمن حقه علينا فى مقابل أن نرصد له مظهراً من مظاهر عبقريته ، وهو قدرته على الخلق الفنى المقنع والمثير للعواطف والنفوس، والذى يؤكد ثقافته اللغوية والمعرفية ، واتساع باعه فى مجال الأفكار والمعانى .

وفى هذا المال يعترف غالبية الشعراء والنقاد لأبى الطيب بالبراعة وحسن السبق ، يقول العكبرى : وقد أجمع الحذاق بمعرفة الشعر والنقاد أن لأبى الطيب نوادر لم تأت فى شعر غيره وهى مما تخرق العقول (2) .

ويسمع السرى الرفاء قول المتنبى :

وخضرٌ تثبت الأبصار فيه ... كأنّ عليه من حَدق نطاقًا

فيقول (3) : هذا والله معنى ما قدر عليه السابقون .

ويقول أبو العباس النامى الشاعر [٤] : كان قد بقى فى الشعر زاوية دخلها المتنبى وكنت أشتهى أن أكون سبقته إلى معنيين قالهما ما سُبق إليهما ، أما أحدهما فقوله :

رماني الدهر بالأرزاء حتى فؤادى فى غشاءٍ من نبال
فصرت إذا أصابتنى سهامٌ تكسرت النصال على النصال

والآخر قوله :

فى جحفلٍ ستر العيون غباره فكأنما يبصرن بالآذان

أما قوله:

صوبن حين أردن أن يرميننى نبلاً بلا ريش ولا بقداح
ورمين من خلل الستور بأعينٍ مرضى مخالطها السقام صحيح

فيقول عنه الدكتور طه حسين [٥] :

نحن نلمح الاختلاف بين الحقائق المحكية والصور الحاكية ، وإظهار التشابه الدقيق بين هذه الحقائق وهذه الصور - هذا التشابه الذى ينشأ من دقة الصنعة وبراعة الفنان وهما سبيل المتنبى ومذهبه إلى إجادته الفنية .

وعن قوله :

لـه عسـكرٌ خيـلٌ وطـيرٌ إذا رمـى بهـا عسكراً لم تبـق إلا جماجمـه

يقول الدكتور طه حسين أيضاً [٦]:

إن المعنى الذى ألم به الشاعر قديم ، سبق إليه النابغة وأبو نواس وبعض القدماء الذين كانوا يزعمون أن سباع الطير قد عرفت بلاء الممدوحين فى الحرب لذلك فهى تتبعهم لتأكل مما يقتلون . أما المتنبى فلم يجعل طير سيف الدولة "طفيلية" تتبعه لتعيش وإنما جعلها بعض جنوده ، فهى تتبعه محاربة لا متطفلة وليس هذا هو المهم إنما المهم هو أنه جعل للأمير جيشين جيش فى الأرض تحمله الخيل ، وآخر فى السماء يحمله الجو.

أما قوله :

أزورهـم وسـواد الليـل يشـفع لى وأنْثنِى وبيـاض الفجـو يُغرى بى

فيرى النقَّاد أنه من أجمل الأبيات العربية طباقاً وأدقها موزانة ، مع عذوبة اللفظ ورشاقة فى الصنعة . فهو لم يترك عنصراً فى الشطر الأول إلا جاء له فى الشطر الثانى بما يتوازن معه بحسب مكانه فى نظام هذه العناصر.

ويحصى الثعالبى فى موسوعته الضخمة - فى معرض الحديث عن المتنبى مجموعة من أشعاره تحت عنوان (حسن التصرف فى مدح سيف الدولة بجنس السيفية) نذكر منها :

عـزؤاك سـيفَ الدولـة المقتـدى بـه ... فإنـك تصـلٌ والشـدائد للنصـلِ
كل السيوف إذا طال الضراب بها ... يمسها غير سيف الدولة السأمُ
تهـاب سـيوفُ الهنـد وهـى حدائـد ... فكيـف إذا كانـت نزاريـة عُربـا

ولا يقتصر تجديد أبى الطيب على موافقه من سيف الدولة ، ويمدنا الثعالبى أيضاً - بمجموعة أخرى من مبتكراته تحت عنوان (ومنها الإبداع فى سائر مدائحه) حيث نلمح فيها الكثير من المعانى الجديدة والأفكار المبتكرة التى سبق فيها الشاعر غيره من الشعراء :

كالبـدر مـن حيـث التفتَّ رأيتـه ... يهـوى إلى عينيـك نـوراً ثاقبـاً
كالشمس فى كبد السماء وضوؤها ... يغشى البلاد مشارقاً ومغارباً
كـالبحر يقـذفُ للقريـب جـواهراً ... جواداً ، ويبعثُ للبعيد سحائباً

ومن بدائعه حسن التشبيه بغير أداة ... كقوله :

بدت قمراً ومالت غصنَ بانٍ ... وفاحـتْ عنـبراً ورنـت غـزالاً
ترنو إلى بعين الظبى مجهشة ... وتمسح الطلَّ فوق الوردِ بالعنم
عرفتُ نوائب الحدثان حتى ... لـو انتسـبت لكنـتُ لهـا نقيبـاً
وأتيـتُ معتزمـاً ولا أسـدٍ ... ومضـيتُ منهزمـاً ولا وَعـلُ

ويعجب الجرجانى من أولئك النقاد الدين ينعون على أبى الطيب بيتاً شذ وكلمة ندرت وقصيدة لم يسعده فيها طبعه، وينسون محاسنه وقد ملأت الأسماع وشغلت الأفكار ، وبخاصة تجديده الذى لم يستطع غيره من الشعراء أن يأتى بما يصلح لصاحبته ومجاورته (٧) .

وانظر قوله :

أتـــاك يكـــاد يجحـــد عنقـــه   وتنقـــدُ تحـــت الـــذعر منـــه المفاصـــلُ

إننـا لا نستطيع فى معرض تحليل هذا البيت أن نقف عند حد القول بأنه يصف الخوف والاضطراب والاستسلام والإقرار بالندم والاعتراف بقسوة مسبب هذا الخوف وقدرته على الإهلاك والانتقام . وهى المعانى المكرورة على ألسنة الشعراء من قبل . ولكننا هنا بإزاء معنى جديد أضافه المتنبى وابتكره وهو عجز الشخص عن استجماع أطراف نفسه حتى كأن أطرافه ينفر بعضها من بعض وأنها تنقم من نفسها لجرأتها على المخالفة والعصيان . ومثل هذا المعنى لم نسمعه من قبل لدى شاعر من الشعراء (٨) .

ويتعمق المتنبى أكثر و أكثر...

ويفطن إلى ما للميل إلى الشىء من أثر فى سرعة الاستجابة إليه ، وإلى أن أقوى الاتجاهات جذباً للنفس ما صادف هوى ولقى منها قبولاً واستعداداً .. وذلك فى قوله :

إنما تنجح المقالة فى المر ء إذا صادفتْ هوىً فى الفؤادِ

ولا نظن أن علماء النفس فى العصر الحديث قد اهتدوا إلى غير ما قاله المتنبى بعيداً عن أية مصطلحات علمية ، ودون أن يتخذ ما اتخذوه من مقاييس أو تجارب

وهل يخرج قول المتنبى عن أن يكون منطوقاً لقانون من قوانين علم النفس التربوى يقول :

إن كل استجابة ناجحة لمثير من المثيرات يجب أن تقوم على دافع نفسى فطرى أو مكتسب بحيث تشعر النفس أن هذه الاستجابة ستحقق حاجة من حاجتها وتشبع ميلاً فيها (٩) .

ولم أجد من قدامى النقاد من تناول تلك الظاهرة من فن المتنبى تناولاً يحدد قيمتها ويكشف عن منزلتها ويبرزها فى معرض الجديد لدى هذا الشاعر الذى كثرت فيه البحوث وتشبعت الدراسات .

كما أننى لم أجد أمثال هذه الخطرات لدى غيره من الشعراء على كثرة ما لهم من قصيد وما خلفوا لنا فى دنيا الفن من قصيد (١٠) .

* * *

وإذا كان الجرجانى قد ساق فى معرض المحاجة والمناظرة أن هذا البيت (١١):

ومن سَرَّ أهلَ الأرض ثم بكى أسىً بكى بعيونٍ سرها وقلوبِ

جديد فى معناه فقط ، فإن الجرجانى لم يتنبأ بأن الزمن سيكشف بعد عن مقياس نفسى تسلم به الأجيال وهو ما عرف بعد باسم (المشاركة الوجدانية) ، وهو ما أتى به أبو الطيب – عرضًا أثناء عزائه لسيف الدولة فى مولاه "يمالك " (١٢)

وما دمنا بصدد استعراض بعض الجديد والمبتكر فى شعر المتنبى ، فلا يفوتنا أن نذكر الانقلاب الذى أحدثه فى نظرية علمية تقول :إن الفرع يعزى إلى الأصل وأن مافى الفرع من سمات المجد أو السمو إنما تعود فى الأساس إلى انتسابه لأصل ماجد سام . ويأتى المتنبى ليقلب القضية ويتخذ من عكسها سمة من أبدع سمات المدح وأرق مواقف الثناء ثم أنه يفعلها مؤيدة بدليلها المنطقى والفنى الذى لا يمارى فيه إنسان .. فيقول :

وإن تكن تغلب الغلباء عنصرها فإن فى الخمر معنىً ليس فى العنبِ

ويكرر نفس الفكرة فى قوله :

فإن تفق الأنام وأنت منهم فإن المسكَ بعضُ دم الغزال

إنها الدورة فى نفس الدائرة ....

واحتذاء المنهج نفسه من عرض الفكرة الجديدة المؤيدة بالدليل القوى الذى يزكيها ويدعمها ويزيل عنها الغرابة والاستنكار.

وفى الرثاء يخرج الشاعرعلى مألوف القوم فى عصره . فعهدهم به أن يكون باستدعاء البكاء ، أو التسجيل على الأكوان بالمصيبة ، أو بالإنكار على من لم يتفجع للفقيد من الجمادات ... لكن شاعرنا يترك ذلك كله ويملأ شعره بالحكم

إذا ما تأملت الزمان وصرفه   تيقنتَ أن الموت ضربٌ من القتل

وما الدهر أهل أن تؤملَ عنده   حياة وأن يشتاق فيه إلى النسل

وشعر الحكمة قديم فى الشعر العربى ومنذ الجاهلية . لكن الجديد الذى أتى به أبو الطيب هو نقله الحكمة من محيط الحياة اليومية إلى محيط الرثاء . وهل مثل موقف الموت موقف يحتاج إلى الحكمة التى تزهد فى الحياة وكل ما يؤمل فيها ؟؟؟ .

ولا نستطيع أن ننهى الحديث عن التجديد والابتكار فى شعر أبى الطيب المتنبى دون أن نتعرض للأسلوب التمثيلى فى شعره الذى يرى الأستاذ محمد كمال حلمى [١٣]أن أسلوب المتنبى ملىء بخصائص هذا الأسلوب الذى تظهر فيه الانفعالات النفسية وتكثر فيه حركات العواطف بصورة ملحوظة . وأن مظهر ذلك فى أسلوبه :الاستفهام والتعجب والتأسف وترديد النداء كما فى قوله

أصخرةٌ أنا؟ مالى لا تحركنى   هذى الكؤوس ولا هذى الأغاريدُ

كما يمتاز أسلوبه أيضاً إلى جانب ذلك بـ"التجسيم" وخلع صفة الأحياء على غير الأحياء بحيث نراها متحركة سمعية بصيرة يعتور ما يعتور النفوس من ذعر ورضى وسخط ..كما فى قوله مخاطباً الحمى :

أبنت الدهر عندى كل بنت   فكيف وصلتِ أنت من الزحام

وقوله مادحاً سيف الدولة حين ظفر ببنى كلاب:

أتحسبُ بيض الهندِ أصلك أصلها   وأنك منها ساء ما تتوهم

إذا نحن سميناك خِلنا سيوفنا ... من التيه فى أغمادها تتبسم

مطالعة واستهلاله :

مقدمة القصيدة ، المطلع ، هى تلك الإثارة التى تنبه المتلقى ، وتبث فى القصيدة الحياة ، ومن ثم تهيؤها للاستجابة الشعرية التى يريد الشاعر التعبير عنها بعد أن عايشها وعاناها .

ولا يتأتى ذلك للأديب الماهر إلا بإثارة النفس وأسرها ، بحيث تندفع إليه اندفاعاً ذاتياً نابعاً من كيانها وتظل تدور معه فى فكله حتى ينتهى من مداره دون أن تمل النفس من السير معه والتحليق فى مسراه .

وضابط المطلع الجيد ما كان بيناً واضحاً لا غموض فيه ، سهل المأخذ بلا تعقيد أوصعوبة فى الفهم .واشترطوا أيضاً أن يكون قوياً يسترعى الأسماع ، بالغ الجودة والإتقان بحيث يستهوى الألباب لمتابعة موضوعه .

وقالوا إن أول ما يحتاج إليه الشعر حسن المطالع والمقاطع . لأن حسن الافتتاح داعية للانشراح ،مطية النجاح . والشعر قفلٌ أوله مفتاح فينبغى للشاعر أن يجود ابتداء شعره لأنه أول مايقرع السمع . وبه يستدل على ما عنده من أول وهلة وليجعله حلواً سهلاً وفخماً جزلاً (١٤) .

كما اشترطوا أن يكون الذوق المرهف مصدرها وينبوعها ، فلا يكون فيه ما يشتم منه رائحة تشاؤم أو تطير أو تشمل ما لايصح أن يوجه به الخطاب إلى

السامع . أو أن تكون فى عبارتها ما قد يثير فى ذهن السامع ما لا يريد الشاعر أن يتجه إليه الذهن .

والشاعر الحاذق يجتهد فى تحسين الاستهلال والتخلص وبعدهما الخاتمة إذ هى المواقف التى تستعطف أسماع الحضور وتستميلهم إلى الإصغاء (١٥) .

وذلك صحيح إلى حد بعيد ...

فكم من مطالع جذبت السامع أو القارىء وحملته على متابعة الشاعر ، وكم من مطالع حدث منها العكس فنفرت وصرفت المتلقى عن القصيدة والشاعر

والمتنبى له مطالعه التى ترضى أدباء البلاغة والمتلقى . وله أخرى قال عنها القدامى والمحدثون أنها رديئة لا تجوز .

لكن لابن رشيق رأى أخر. أنه يرى أن شاعرنا أربى على كل شاعر فى جودة هذه الأمور الثلاثة :المطلع والتخلص والخاتمة ، و إن جاء فى شعره على خلاف ذلك لا يدل على الطابع العام للشاعر ولكنه نتيجة لرغبة المتنبى فى الإغراب على الناس ثقة منه بنفسه وإدلالاً منه بفنه (١٦) .

ويرى صاحب "تنبيه الأديب "(١٧) أن قول المتنبى :

أتراهـــا لكثـــرةِ العشـــاق   تحسـب الـدمع خلقـة فـى المـآقى

ما أندر المطالع وأحسنها لأنه لم يسمع بمثله ومعنى تفرده وإبداعه ، وهو من المطالع المضروب بها المثل فى عذوبة اللفظ وجودة السبك .

ومن مطالعه الجيدة قوله مادحاً سيف الدولة :

لكلِّ امرىءٍ من دهره ما تعودا وعاداتُ سيف الدولة الطعن فى العدا

وقوله يصف انتصاره على الخارجين عليه:

طوال قنا تطاعنها قصار وقطرك فى ندى ووغى بحار

وقوله فى الرثاء :

إنى لأعلم واللبيب خبير أن الحياة وإن حرصتَ غرور

وقوله فى التشوق :

شوقى إليك نفى لذيذ هجوعى فارقتنى فأقام بين ضلوعى

وقوله فى الغزل :

فديناك أهدى الناس سهماً إلى قلبى وأقتلهم للدارعين بلا حربِ

ويسوق الجرجانى فى " الوساطة" ، والثعالبى فى " يتيمة الدهر " جملة من المطالع التى حازت رضاهما واستوفت فى نظرهما شرائط الحسن .. مثل :

فديناك من ربع وإن زدتنا كرباً فإنك كنت الشرق للشمس والغربا

أفاضل الناس أغراض لذا الزمن يخلو من الهم أخلاهم من الفطن

المجد عوفى إذ عوفيت والكرمُ وزال عنك إلى أعدائك السقمُ

الرأيُ قبل شجاعة الشجعان هو أولٌ وهى المحلُّ الثانى

تلك بعض النماذج الجيدة من مطالع أبى الطيب تحسب له ، لكن ليس معنى ذلك أن جميع أشعاره اشتملت عليها فذلك فرض لايمكن تصوره عقلاً ، لأن النفس البشرية مهما ارتفع مستواها الفنى يستحيل عليها أن تراعى فى كل آونة الأسس الجمالية التى تواضع عليها النقاد .

حسن تخلصه :

لا يعدو حسن التخلص أن يكون انتقالاً طبيعياً من المقدمة التى استفتح بها الشاعر قصيدته إلى الغرض الذى من أجله ساق القصيدة ومعنى الانتقال الطبيعى أن يتحايل الشاعر على ربط المقدمة بالغرض ربطاً مستوياً ، بحيث تبدو للقارىء كما لو كانت حلقة فى سلسلة متصلة الحلقات لا انفصال بينها ولا انفصام وحتى يشعر القارىء أو السامع أن الشاعر انتقل من فكرة إلى فكرة أخرى هى منها ذات نسب قريب ووشيجة دانية كما لو كانت تلك الفكرة الجديدة نتيجة حتمية لما سبقتها ، يكاد العقل أن يقع عليها لو لم يصرح بها الشاعر ، ويشعر بالنفرة والغربة لو جاء إلى سواها .

وبالنسبة للمتنبى ، فإن حسن تخلصه موضع تقدير النقاد وإعجابهم . ويرى القيروانى أنه أكثر الشعراء استعمالاً لهذا الفن ،حتى أنه ما يكاد يفلت منه ولا يشذ عنه .

ويذكر الجرجانى فى "الوساطة" من عجيب تخلصه قوله :

حالٌ متى علم ابن منصور بها   جاء الزمان إلىَّ منها تائباً

مـرت بنـا بـين تربيهـا فقلـت لهـا　　مـن أيـن جـانس هـذا الشـادن العربـا

فاستضحكت ثم قالت كالمغيث يرى　　ليث الشرى وهو من عجلٍ إذا انتسبا

أما ما رووه من أمارات الخروج على هذا الأصل العام الثابت لديه وعدوه من الفرط والندرة فقوله :

ها فانظرى أو فظنى بى ترى حرفاً　　مـن لم يـذق طرفـاً منهـا فقـد والا

عـلَّ الأمـير يـرى ذُلّـى فيشـفع لى　　إلى مـن تركتنـى فـى الهـوى مـثلاً

فقد تمنى أن يكون الأمير قواداً له (١٨) .

وقوله :

لو استطعت ركبت الناس كلهم　　إلى سـعيد بـن عبـد الله بعرانـا

كما يذكر أيضاً من سواءت تخلصه:

أحبـك أو يقولـوا جـر نمـل　　ثـبيرا وابـن إبـراهيم ريعـا

قال القاضى : لعلك لا تجد فى شعره تخلصاً مستكرها مثله .

شعره الملحمى:

تعنى كلمة" ملحمة" فى اللغة العربية : الواقعة العظيمة ، وقيل موقع القتال .أما معناها الذى اصطلحنا أن يكون مقابل لفظ *(Epic)* فى الأدب العربى فهو القصيدة التى اتسمت بالحديث عن الأبطال .

وهى تعتمد على الخيال المجنح ، أو تصور بطولة المحاربين ، وتتميز كذلك بالطول ، وتحكى قصص الأحداث التاريخية (١٩) .

وقد عرف شعر الملاحم فى الجاهلية وبعد الإسلام . لكن هؤلاء الشعراء لم يفرغوا لهذا الفن ولم يبرعوا فى وصف المعارك كما برع المتنبى، لأن أغلبهم لم يحضر تلك الوقائع والملاحم على عكس شاعرنا . فوصفوا ما أداه السماع وأبو الطيب وصف ما أداه العيان لأنه كان يرافق سيف الدولة فى ملاحمه مع الروم والبيزنطيين .

ويرى ابن الأثير أن المتنبى اختص بالإبداع فى وصف مواضع القتال ، وأنه إذا خاض فى وصف معركة كان لسانه أمضى من نصالها وأن طريقه فى ذلك يضل بسالكه .

ويقول أيضاً :

إنه – أى المتنبى – إذا وصف معركة كان أشجع من أبطالها وقامت أقواله للسامع مقام أفعالها ، حتى تظن الفريقين قد تقابلا والسلاحين قد تواصلا [٢٠]

والحق أننا لم نجد من قدامى النقاد من حاول النيل من هذه الخاصية . ولم نجد من تعقب هذه الدراسات فأثبت عواراً فيها ، أو أبان عن خطل بها اللهم إلا ما رأيناه للحاتمى من محاولة إنكار كل ما للشاعر من ميزة وفضل .

والقصائد التى كرسًّها المتنبى لكل واحدة من حملات سيف الدولة تسمح لنا بأن نتابع على الخريطة سير الجيوش . ونرى أحياناً أن مواقع منطقة الجبهة العربية /البيزنطية التى أشار إليها أبو الطيب فى أشعاره لم يذكرها أى مؤرخ أو أى جغرافى قبله بل وبعده .. والفضل يعود إليه فى تعيين هذه المواقع ولو على سبيل التقريب . ويذكر ياقوت الحموى فى" معجم البلدان الجغرافى" المتنبى كل لحظة

وأحياناً لا يذكر إلاه . فهو إذن مصدر استعلامات عن طبوغرافية المناطق التى اخترقها الأمير الحمدانى (٢١)

ومن روائع قصائده الملحمية تلك الملحمة الميمية التى يصف بها إحدى معارك سيف الدولة :

أتـوك يجـرون الحديـد كـأنهم سـروا بجيـاد مـا لهـن قـوائم

إذا برقوا لم تعرف البيض منهم ثيـابهم مـن مثلـها والعمـائم

ويذهب الدكتور عبد الوهاب عزام إلى أن قصائد المتنبى فى وصف حروب سيف الدولة الداخلية والخارجية تفوق الملاحم اليونانية واللاتينية والهندية والفارسية (٢٢).

وهكذا أصبح المتنبى المؤرخ الرسمى للأمير الحمدانى . فنحن حين نقرأه يطير بنا الفكر أحياناً إلى لويس الرابع عشر وإلى عبور الراين لقد صحب الشاعر سيده فى جميع غزواته ، وليس ثمة داع يدعونا إلى الاعتقاد بأن المتنبى حين سرد الوقائع غرق فى المبالغات وجاوز كل واقع فى موقفه الحربى . إن هذه الحقيقة تمنح أبياته على كل حال – رنين طبول الحرب التى تواكب نغماتها أحياناً أبواق كورنى (٢٣)

الهوامش :

١. محمود محمد شاكر / المتنبى /رسالة فى الطريق إلى ثقافتنا/ دار المدنى بجدة / ١٤٠٧هـ.
٢. يوسف البديعي/الصبح المنبى عن حيثية المتنبى / دار المعارف / مصر١٩٦٣.
٣. السابق .
٤. نفسه .
٥. مع المتنبى / دار المعارف / مصر / ١٩٧٦.
٦. السابق .
٧. الوساطة.
٨. د. محمد عبد الرحمن شعيب/ المتنبى بين ناقديه / دار المعارف / مصر/ ١٩٦٤.
٩. انظر (الدوافع النفسية) للدكتور مصطفى فهمى /دار المعارف / مصر .
١٠. المتنبى بين ناقديه .
١١. الجرجانى /الوساطة بين المتنبى وخصومه .
١٢. المتنبى بين ناقديه / مرجع سابق ؟

١٣. عباس العقاد وآخرون / أبو الطيب المتنبى ..حياته وشعره / مجموعة مقالات / المكتبة الحديثة / بيروت / ١٩٨٢ .

١٤. العمدة / باب المبتدأ .

١٥. الجرجانى / الوساطة .

١٦. العمدة / جـ ١ .

١٧. عبد الرحمن باكثير المكى / مخطوط بدار الكتب المصرية .

١٨. الصبح المنبى / مرجع سابق .

١٩. محمد مندور وآخرون / آراء حول قديم الشعر وجديده مجموعة مقالات/سلسلة كتاب العربى/الكويت/ العدد١٣ أكتوبر ١٩٨٦.

٢٠. المثل السائر.

٢١. المتنبى والحرب البيزنطية / ماريوس كنار/ مقال بمجلة المورد/العراق / العدد الثالث / المجلد السادس /١٩٧٧ .

٢٢. ذكرى أبى الطيب بعد ألف عام / طبعة الجزيرة بغداد / ١٩٣٦ .

٢٣. كودفرا أدومبين /المتنبى وأسباب مجده /مقال بمجلة المورد /مرجع سابق

الفصل الرابع :

ألفاظ المتنبي ومعانيه

اهتم الشعراء منذ القدم بالأناقة فى نظم الشعر .. وهذا ما حمل النقاد وعلماء البيان على إطالة الجدال والذهاب مذهبين فى قضية اللفظ والمعنى ، والنظر إلى الشعر من وجهتيه اللفظية والمعنوية . فجعلوا للفظ كما جعلوا للمعنى أحكاماً بلاغية خاصة ، وعنها نشأ ما عرف عندهم بالصناعة اللفظية والصناعة المعنوية

وهكذا انفرد اللفظ عن المعنى . فقدم بعضهم الأول ، وجعل بعضهم الصدارة للثانى ، وكان لكل فريق حججه وأسانيده .

يقول عبد القاهر الجرجانى :

وماذا فى اللفظ لولا المعنى ؟؟ وهل الكلام إلا بمعناه؟؟ [1] .

ويقول ابن قتيبة :

وضرب منه - أى الشعر - حسن لفظه ، فإذا أنت فتشته لم تجد هناك طائلاً [2] .

وقد دافع عن هذا الرأى - أفضلية المعنى على اللفظ - بعض كبار الباحثين كعبد القاهر الجرجانى وابن جنى واعتنقه كثير من الشعراء .

وعلى الجانب الآخر قد فريق اللفظ على المعنى .. وهو فريق أكثر عدداً وأكثر شيعة . يقول القيروانى : إن اللفظ أغلى من المعنى ثمناً وأعظم قيمة وأعز مطلباً فإن المعانى موجودة فى طباع الناس يستوى فى ذلك الجاهل والحاذق ، ولكن العمل على جودة الألفاظ وحسن السبك وصحة التأليف ألا ترى لو أن رجلاً أراد فى المدح تشبيه رجل لما أخطأ أن يشبهه فى الجود بالغيث ، وفى الإقدام بالأسد . وفى

المضاء بالسيف ، وفى العزم بالسيل ، وفى الحُسْن بالشمس ، فإن لم يحسن تركيب هذه المعانى فى أحسن حُلاها من اللفظ الجيد الجامع للرقة والجزالة والعذوبة والطلاوة لم يكن للمعنى قدر (٣) .

ويقول ابن خلدون فى مقدمته :

وصناعة الكلام نظماً وشعراً إنما هى فى الألفاظ لا فى المعانى . إنما المعانى تبع لها وهى أصل . والمعانى موجودة عند كل واحد وفى طوع كل فكر له منها ما يشاء ويرضى فلا تحتاج إلى صناعة . وتأليف الكلام للعبارة عنها هو المحتاج للصناعة وهو بمثابة القوالب للمعانى (٤) .

والمعانى مطروحة فى الطريق يعرفها العجمى والعربى والقروى والبدوى وإنما الشأن فى إقامة الوزن وتخير اللفظ (٥) .

ويقول الأستاذ عباس حسن (٦):

ومن البديه أن نقول أن المعنى لا يتجسم ولا يبرز نفسه ولا يمتد التأثير من ذاته وإنما يبرز فى قوالب من الألفاظ تظهره وتحدد معالمه وتمده بالتأثير . فإلى اللفظ يرجع الفضل الأكبر فى ظهور المعنى وبروزه . وإلى جمال اللفظ وحسن اختياره والبراعة فى أدائه يرجع الفضل الأول فى تأثير المعنى فى العقول والنفوس .

ويتفق الدكتور زغلول سلام (٧) مع هذا الرأى فيقول :

وهذا التصور لاستقلال اللفظ عن المعنى لا يتفق فاللفظ فى أصله رمز المعنى ولا يقوم اللفظ وحده صوتاً دون معنى ، أى لا يمكن – على صورة من الصور – فصله

عن مدلوله ، أو حتى تصور هذا الفصل ذهنياً كالفصل بين الروح والجسد فى حالة الموت .

ويقول الإمام عبد القاهر الجرجانى (٨) مثبتاً مبدأين هامين :

الأول : أن البلاغة لا تقوم على اللفظ بذاته ولا على المعنى بذاته ، بل على طريقة نظمهما معاً فى الجملة .

الثانى : أن النظم العالى لا يعنى مجرد الإجادة فى رصف الألفاظ والعبارات بل هى أن يكون للكلام تلك الروعة المعنوية التى تمس القلوب إذا لا يرتفع بتركيبه عن المعتاد ، ويوحى بمعان وراء المعانى . وهذا مسلك دقيق لا يسلكه إلا من أوتى ملكة التمييز العالى من أساليب التعبير . وقد سبق عبد القاهر الجرجانى بهذا التفريق بين المعنى ومعنى المعنى ما وصل إليه كبار الأوروبيين المحدثين فى هذا الشأن . فالجنس الأدبى بهذا المفهوم لم يعد شكلاً فحسب ولا مضموماً فحسب إنما هو تضفيرة جيدة بين الشكل والمضمون والصياغة التركيبية للكلام .

أما عن قضية الشعر...

فسنورد هنا آراء بعض النقاد القدامى ، فنحن حيال شاعر قديم ومن الأفضل الاستعانة برأى معاصريه لأنهم أقدر على تقييم الشعر فى تلك الحقبة ، ذلك فضلاً عن أن اللغة فى اطراد استعمالها ووضوح مدلولاتها تتضمن إلى معانيها البينية دقائق لا تستطيع المعاجم تفسيرها ، ومرامى تختلف باختلاف الزمان والمكان

ثم إن فى عرض آراء النقاد من السلف فائدتان أخريان :

١- الاستعانة بنظرهم وقد كانوا أكثر منا فراغاً للأدب واختصاصاً به

٢- أن معرفة آراء هؤلاء النقاد في الشعر تدخل في التاريخ الأدبي للشاعر فضلاً عن الحقبة الزمنية التي عاشوا فيها .

يقول الآمدي (٩) :

وليس الشعر عند أهل العلم به إلا حسن التأتي ، وقرب المأخذ ، واختيار الكلام ووضع الألفاظ مواضعها وأن يورد المعنى اللفظ المعتاد فيه المستعمل في أمثاله . وأن تكون الاستعارات والتمثيلات لائقة بما استعيرت له وغير منافرة لمعناه . فإن الكلام لا يكتسي البهاء والرونق إلا إذا كان بهذا الوصف. ويقول الجاحظ (١٠) :

إن أجود الشعر ما رأيته متلاحم الأجزاء سهل المخارج ، فتعلم بذلك أنه قد أفرغ إفراغاً واحداً وسبك سبكاً واحداً .

ويقول ابن سنان الخفاجي (١١):

ومن الصحة صحة النسق والنظم وهو أن يستمر - أي الشاعر - في المعنى الواحد ، فإذا أراد أن يستأنف معنى آخر أحسن التخلص إليه حتى يكون متعلقا بالأول وغير منقطع عنه .

ويقول ابن طباطبا العلوي (١٢) :

وينبغي للشاعر أنْ يتأمل تأليف شعره وتنسيق أبياته ، ويقف على حسن تجاورها أو قبحه فيلائم بينها لتنتظم له معانيها ويتصل كلامه فيها ، ولا يجعل بين ما قد ابتدأ وبين تمامه فصلاً من حشو ليس من جنس ما هو فيه فينسى السامع

المعنى الذى يسوق القول إليه ، ولا يباعد كلمته عن أختها ، ولا يحجز بينها وبين إتمامها بحشو يشينها

ويقول أبو هلال العسكرى [١٣]:

إن جهد الشاعر وصنعته مما تزيد الشعر وضوحاً وقوة . وإذا عمل قصيدة فهذبها ونقحها بإلقاء ما غث من أبياتها ورث ورذل ،والاقتصار على ما حسن وفخم بإبدال حرف منها بآخر أجود منه حتى تستوى أجزاؤها وتتضارع هواديها وأعجازها . وينبغى أن تجعل كلامك مشتبهاً أوله بآخره ، ومطابقاً هادية لعجزه ولا تتخالف أطرافه ولا تتنافر أطواره وتكون الكلمة منه موضوعة مع أختها ومقرونة بلفقها .

ويبرز ابن قتيبة حسنات الشعر فيجملها فى [١٤]:

سهولة اللفظ - إصابة التشبيه - جودة القوافى - تجنب الضرورات والفضول والتكرير والإفراط فى المبالغة والأخطاء المعنوية والعروضية .

أما المرزوقى فيرى [١٥]:

وجوب قيام العمود الشعرى على عدة أركان نلخصها فيما يلى :

فى المعنى : أن يقبله العقل الصحيح ، أى يكون مستقيماً لا يخالف المعقول

فى اللفظ : أن يسلم من الهجنة .. أى يكون مألوفاً مستعذباً .

فى الوصف : الإصابة وحسن التمييز .. أى أن يكون صادقاً مناسباً للموصوف

فى التشبيه : أن يقع بين شيئين اشتراكهما فى الصفات أكثر من انفرادهما ولا ينتقص عند العكس .

فى الاستعارة : أن يكون المستعار مناسباً للمستعار له . ويكتفى بذكر المستعار فقط فى التحام أجزاء الكلام . وأن يكون الكلام منسجماً لطيف التركيب حسن التوقيع .

فى القافية : وأن يكون مما يشوقه اللفظ والمعنى .

ثم يضيف : بأن هذه الخصال هى عمود الشعر فمن لزمها بحق وبنى شعره عليها فهو الشاعر المفلق .

وفى عصر المتنبى كانت اللغة بتفريعاتها الدقيقة تمثل القيمة الثقافية الأولى فى المجتمع ، يحرص عليها الجمهور ويحرص عليها الحكام لما لها من صلة وثيقة بالعقيدة الدينية ومحورها القرآن الكريم ، وبالشعور القومى الذى كان الدافع الدينى يغذيه ويكرس مقوماته .

فعصر المتنبى كان عصر ازدهار علوم اللغة ونضج مباحثها ووفرة مصنفاتها وكان يحفل بطائفة من كبار اللغويين لم يحظ بهم أى عصر من عصور العربية . كان فيه أبو على الفارسى وأبو سعيد السيرافى وأبو الحسن بن خالويه وعلى بن عيسى الرمانى وأبو الفتح وأبو الطيب اللغوى وغيرهم مما لا يتسع المجال لاستقصائهم

ولأن الأديب دوماً ابن عصره .. فقد كان المتنبى مر النفس صعب الشكيمة جاداً مجداً . نشأ مؤهلاً لأن يكون الشاعر المثقف العالم بلغته المحيط بأطرافها ودقائقها ، مهيأ لأن يناظر فيها علماءها ويحاورهم ويجادلهم وليس غريباً إذن أن يفاجئنا فى شعره بثروة لغوية واسعة تتجاوز حدود الفصيح إلى الغريب الشارد الذى لا تكاد تجد له صدى فى غير كتب (الغريب) وكتب (النوادر) . ولعل تمرسه فى دراسة اللغة وامتلاك ناصيتها أعطاه إحساساً بأحقيته فى أن يصنع لنفسه لغته قياساً وإن لم ترد عن العرب سماعاً فهو يشتق اللفظ الذى يؤدى به المعنى على مقتضى القياس وإن ضاقت دائرة هذا القياس أو منعه المتزمتون من النحويين

ويذكر الحموى – وهو من هو خصومة لأبى الطيب – أنه [١٦]: لما علوته بالكلام قال : يا هذا مسلمة إليك اللغة ، فقت : وكيف تسلمها وأنت أبو عذرتها ومن نصابها وأولى الناس بالتحقق بها والتوسع فى اشتقاقها والكلام على أفانينها ، وما أجد أولى بأن يسأل عن لغته منك .

وفى مصر قرىء على أبى الطيب كتاب " المقصور والممدود" لأبى العباس بن ولاد فصححه وأخذ على مؤلفه غلطات [١٧] .

والذى لا ريب فيه أن أبا الطيب المتنبى بلغ من العلم باللغة وغريبها وشواردها ، ولقن عن أهل البادية منها ما لا نعلمه لشاعر آخر . وقد بلغ فى هذا أن عُدَّ فى عصره من علماء اللغة وإن غلب الشعر عليه .

وقد أعرب هو عن شغفه وولعه بالقراءة وأنسه بالكتب فى قوله :

أعز مكان فى الدُنا ظهر سابح وخيرُ جليس فى الزمان كتابُ

ويتفق غالبية النقاد على أن المتنبى كان من شعراء المعانى ..

وقد غربلت الأشعار قديمها وحديثها ،وتأملها تأمل المنتقد فما وجدت ما لأبى تمام والمتنبى فى باب المعانى [١٨]

كما وفق التمنبى بين الشعر والفلسفة ، وجعل أكثر عنايته بالمعنى ، وأطلق الشعر من القيود التى قيده بها أبو تمام وشيعته ، وخرج به عن أساليب العرب التقليدية ، فهو إمام الطريقة الابتداعية فى الشعر العربى [١٩] .

ورغم الاتفاق على عناية المتنبى بالمعنى ، إلا أن النقاد اختلفوا فى ألفاظه اختلافاً واسع المدى . فمنهم من ينزهه عن مظنة العيب ويرى أن ألفاظه بلغت من الدقة وحسن الاختيار منزلة يستحيل عليك معها أن تغير كلمة من كلماته بسواها ثم يتبقى للأسلوب طلاوته ورقته التى كانت له قبل التغيير ، وهذا رأى أبى العلاء المعرى . ومنهم من يرى أنه رجل يتفاصح بالألفاظ النافرة والكلمات الشاذة حتى كأنه وليد خباء او غُذِّىَ لبن لم يطأ الحضر ولم يعرف المدر .

ويجب الإقرار بأنه ما من شاعر عُرفَ بكثرة الخصوم مثل ما عرف المتنبى فقد ناوأه وتألب عليه خلق كثير تدفعهم إلى ذلك عوامل شتى وأسباب متباينة . وقد لفتت هذه الظاهرة النقاد القدامى والمحدثين . أما القدامى فاكتفوا بتسجيلها ولم يحاولوا تفسيرها . وأما المجدثون فقد أرجعوها إلى طائفة من العوامل بعضها يتصل بأخلاق الشاعر وخصاله ، وبعضها يتعلق بشعره ، أو بما اتسم به ذلك الشعر من سمات فى المعنى والتعبير.

ويقول الدكتور إحسان عباس [٢٠] : وقد صدم المتنبى الذوق مرتين ، مرة بشخصه المتعالى المتعاظم ، ومرة بجرأته فى الشعر. جرأته التى تركب المبالغة حتى تمس العقيدة الدينية وتنتحل أراءً فلسفية غريبة ، وتستخف بأصول اللياقة والعرف فى مخاطبة الممدوحين ، وأخيراً تصرفه باللغة تصرف المالك المستبد ..

والمتتبع للنقد الذى وصل إلينا حول المتنبى يجد أن أكثره هو النقد الصادر عن خصومه وشانئيه . ومن الغريب أننا نسمع بأنصار أبى الطيب ونرى الكتب مملوءة بالرد عليهم ، ولكننا لا نجد آثاراً مكتوبة فى الدفاع عن صاحبهم ، وكأنهم اكتفوا بما كانوا يذيعونه فى المجالس ، على حين تلاحقت الكتب فى العراق وفارس ومصر للرد عليهم . وليس فى الحالين تكافؤ ،فأنصار المتنبى يضيعون جهودهم فى أحاديث المجالس والحلقات ، بينما يخلد خصومه مذمته فى الكتب والرسائل .

والواقع أن أهم ما يميز المتنبى عن جمهرة شعراء العربية الآخرين أن قارىء ديوانه فى جملة غفيرة من المواضيع كثيراً ما يواجه بالإرهاق والدوار قبل أن يهتدى إلى معرفة فكرة البيت الشعرى والمعنى الذى قصد إليه الشاعر. وقد لا يهتدى إلى مراد الشاعر ما لم يستعن بالمصادر القديمة التى توفرت باسم " المشكل فى شعر المتنبى" ، وسماه نقاده " التعقيد فى شعر المتنبى " حتى أن الواحدى يقول :

إن معانيه خفيت على اكثر من روى شعره من أكابر الفضلاء والأئمة العلماء حتى الفحول منهم والنجباء [٢١] .

وقد أصاب بعض أدبائنا حين نقل رأى الواحدى وأردفه بقوله أن المعانى الشعرية ليست من قبيل الأسرار الصوفيه أو القضايا التعليمية التى تقتضى دقة النظر والجهد فى فهمها .إنما هى معان طبيعية تدركها البداهة بأدنى رمز .

ولعل فى تعدد المحاولات التى بذلت قديماً فى دراسة وتفسير أشعاره تقدم لنا دليلاً واضحاً على تميز الشاعر على سواه فى هذه الظاهرة - الغموض - التى تشكل سمة خاصة به ، افرزها تكوينه الثقافى ومزاجه الخاص .

ومصطلح "الغموض" و "الإبهام" وما يتصل بهما من ألفاظ مثل التعقيد والمعاظلة هى مصطلحات استعملها النقاد العرب وأسهبوا فى الحديث عنها فى مؤلفاتهم . كما اتخذوا من وجودها فى الشعر موقفاً محدداً . يقول عبد القاهر الجرجانى ملخصاً موقفه من ظاهرة التعقيد فى الشعر :

وأما التعقيد فإنما كان مذموماً لأجل أن اللفظ لم يرتب الترتيب الذى بمثله تحصيل الدلالة على الغرض ، حتى احتاج القارىء أن يطلب المعنى بالحيلة ويسعى إليه عن غير طريق ، كقول المتنبى

وإذا اسم أغطية العيون جفونها ... من أنها عمل السيوف عوامل

وإنما ذم هذا الجنس لأنه أحوجك إلى فكر زائد على المقدار الذى يجب فى مثله وكدّك بسوء الدلالة ، وأودع المعنى لك فى قالب غير مستو ولا مملس ، بل خشن مضرس ، حتى إذا رمت إخراجه منه عسر عليك ، وإذا خرج ..خرج مشوّه الصورة ناقص الحسن .

ومن أهم ما يؤخذ على شعر أبى الطيب المتنبى :استكراه اللفظ ، وتعقيد المعنى ، واستعمال الغريب ،وقبح بعض المطالع ، ومخالفة القياس ، والتفاوت فى شعره ـ والخروج من المبالغة إلى الإحالة كقوله :

ولا الضعفُ حتى يبلغ الضعفُ عفه   ولا ضعفُ ضِعفِ الضعف بل مثله ألف

وقوله:

وفاؤكما كالربع أسجاهُ طاسمهُ   بأن تسعدوا والدمع أسفاه ساجمه

ولو سألنا المتنبى عن الدافع له على مثل هذا القول لقال أنه أراد أن يتعب سامعيه .

ويقول:

شيم الليالى أن تشكك ناقتى   صدرى بها أفضى أم البيداء

ويقول :

فرؤوس الرماح أذهبُ للغيـ   ـظ وأشفى لغلُ صدر الحقودِ

وهو هنا يشتق من الرباعى" أفضى" .. "يفضى" ، و "أذهب" "يذهب" ، صيغة تفضيل وشرطها عند النحاة أن يكون فعلها ثلاثياً .

ويقول فى قصيدة أخرى :

فدى من على الغبراء أوَّلهم أنا   لهذا الأبى الماجد الجائد القدم

لقد اشتق اسم الفاعل "جائد" من جاد يجود قياساً ، وإن لم يسمع عنه العرب حيث استعاضوا عنه بالصفة المشبهة باسم الفاعل "جواداً" لخفتها ورشاقتها [٢٢]

ويقول أيضاً :

فمضت وقد صبغ الحياءُ بياضها ... لونى كما صبغ اللجينُ العسجد

ومع أن صبغ لا تتعدى إلى مفعولين ، إلا أن شاعرنا عداه بعد أن ضمنه معنى (أحال) و(صير) .

ورغم امتلاك المتنبى لرصيد لغوى غزير، إلا أنه كان يلجأ أحياناً إلى تجاوز العرف الشائع فى استعمال المفردات من حيث قواعد تأنيثها وتذكيرها وأفرادها وتثنيتها على خلاف ما كان الناس يألفونها عليه [٢٢]. فهل السبب فى ذلك قضية المعنى التى كانت همه الأول والأوحد والتى كانت مقدمة عنده على سواها ؟؟؟.

يقول المتنبى :

مثّلت عينيك فى حشاىَ جراحة ... فتشـــــابها كلتاهُمـــــا نجـــــلاءُ

وكان مقتضى اللفظ أن يقول (فتشابهتا) ولكنه تجاوز ذلك وحمل اللفظ على المعنى فذهب بالعين إلى العضو ،وبالجراحة إلى الجرح ، وهما مذكران [٢].

ويقول فى مناسبة أخرى :

حشاى على جمر ذكىٍّ من الهوى ... وعيناى فى روضٍ من الحسن ترتع

وكان عليه أن يقول (ترتعان) ، واعتذروا له بأن الحكم العينين حكم حاسة واحدة فلا تكاد تنفرد إحداهما برؤية دون الأخرى فاكتفى بضمير واحد [٢٥]

ويقول :

وتكرَّمت ركباتُها عن مبركٍ   تقعان فيه ليس مسكاً أذفرا

وهنا يخبر عن الجمع بالمثنى ، وهو ضعيف وغير سديد فى صناعة الإعراب كما يقول الثعالبى .

وقد يعمد المتنبى فى إعطاء الكلمة معنى غير معناها الذى ألفه الناس أو استعمالاً لم يسبقه إليه أحد . فهو يضع (لم) موضع (ليس) فى قوله :

إذا داءُ هنا بقراط عنه   فلم يوجبْ لصاحبه ضريب

محتجاً فى ذلك بشواهد من شعر الأعشى حيث استخدم (لم) مكان (ما) وغيره وضع (لن) مكان (ما). ويقول الدكتور محمد عبد الرحمن شعيب [٢٦] أنه تتبع الدراسات الكثيرة لقدامى النقاد ولم يجد بها ما يصح إضافته إلا مثالاً واحداً وقع عليه بعد جهد مضنى وبحث وفير.

يقول المتنبى :

فأجرك الإلهُ على عليلٍ   بعثتَ إلى المسيح به طبيباً

وموضوع المؤاخذة قول المتنبى : بعثت المسيح به ، حيث نزل الفعل المتعدى منزلة الفعل اللازم فعداه بالحرف .

ترى .. هل كان المتنبى يرافق قراء شعره ومستمعيه ويعيش معاناتهم عند مواجهة هذا العويص المعقد من أبياته ؟؟. ربما ..بل أن ذلك حدث باليقين وشعور الاغترار والخيلاء يجعله ينظر إليهم وداخله يقول

أنامُ مِلءَ جفوني عن شواردها ويسهر الخلقُ جرَّاها ويختصمُ

لكن تلك "الشوارد" في الحقيقة ليست ألفاظاً مفردة وإلا لتكلفت كتب اللغة بالإفصاح عنها وكشف غامضها ، لكنها معانيه التي كان الناس يكدحون ويكدون أذهانهم في الاهتداء إليها .بل وكانوا يستعينون بالشاعر نفسه ليكشف لهم عن مقاصده من هذه الشوارد التي هي ليست شوارد في الواقع بقدر ما هي ألغاز مغرقة في الغموض .

ولنتأمل هذه "الشادرة" لنلمس كيف أتعبت المتخصصين من أبناء عصره يقول المتنبي :

أمِط عنكَ تشبيهي بما وكأنه فما أحدٌ فوقي ولا أحدٌ مثلي

ما علاقة (ما) بالتشبيه ؟؟وهل هي من أدواته ؟؟

أجاب ابن فورجة : هذه (ما) التي تصحب (كأنما) إذا قلت : كأنما زيد الأسد .

وأجاب الخوارزمي:

(ما) هنا اسم بمعنى (الذي) ، ومعناه أن يقال لمن يشبه البحر: كأنه ما هو نصف الدنيا ، يعنون البحر[٢٧].

وأجاب ابن جنى [٢٨] :

إن(ما) سبب التشبيه لأن القائل إذا قال الآخر: بم تشبه هذا؟قال له المجيب كأنه الأسد أوكأنه الأرقم . فجاء المتنبى بحرف التشبيه وهو (كأن) وبلفظ (ما) الذى كان سؤالاً فأجيب عنها بـ"كأن" .

أما صاحب التبيان فيجيب بأن: الصحيح من معنى هذا البيت أن (ما) نكرة بمعنى شىء موضوعة العموم، كأنه قال : أمط عنك تشبيهى بشىء من الأشياء

هذا نموذج واحد من نماذج مشكل المتنبى ...

اختلف فيه هؤلاء الشرّاح وكلهم من العلماء بالشعر واللغة ....

وتحيروا فى فهم غرض الشاعر .....

فما البال بجمهور القراء ممن لا يملكون قدرة هؤلاء العلماء ومعرفتهم ؟؟؟

وهل الشعر هو ما يسهر الخلق فى تفهمه ، ويختصم الأئمة فى إدراك مراميه ؟؟؟

يقول المتنبى يصف ليلة طويلة :

أحـــادٌ ســـداس فـــى أحـــادِ   لييلتنـــــا المنوطـــــة بالتنـــــاد

قال الواحدى :

لقد أكثروا فى معنى هذا البيت ولم يأتوا ببيان مفيد ، ولو حكيت ما قالوا لطال الكلام . ولكنى أذكر ما وافق اللفظ من المعنى أنه أراد : أواحدة أم ست فى واحدة .

وقال الصاحب بن عباد :

إنها من عيوب قصائده التى تحير الأفهام وتفوت الأوهام لأنه جمع فى الحساب ما لا يدرك بالارتماطيقى .ويضيف: أنه كلام الحِكُل ورطانة الزَّط ، وما ظنك بممدوح قد تشمر للسماع من مادحيه فصك سمعه بهذه الألفاظ الملفوظة والمعانى المنبوذة .

ويتفق ابن خلدون فى مقدمته مع الصاحب فيقول :

ولا تكفى فى الشعر ملكة الكلام العربى ، بل تحتاج إلى تلطف ومحاولة فى رعاية الأساليب واستعمالها ، وانتقاء التراكيب الصحيحة فيرصها كما يفعل البناء

ونكتفى بهذا القدر مما عدوه من عيوب شعر أبى الطيب ، وحسب من يريد المزيد الرجوع إلى كتاب (الفتح الوهبى) لابن جنى ، و (الواضح) للأصفهانى و(الفتح على أبى الفتح) لابن فورجة وغيرها من المصنفات .

لكن ما نود أن نقرره أنه من الحيف أن ننكر طاقة معانى الشاعر وغزارتها فى أكثر شعره . ولعله بالغ فى تلك المعانى والأوصاف فوقع فيما وقع فيه المتكلفون

وقد يكون لشنيع مبالغاته أنها الوسيلة الناجحة فى عصره لاستنزاف المنح والعطايا ، وإغراء الملوك والأمراء وأشباههم من الأغنياء بالبذل والهبات .

وقد جعل الصاحب بن عباد والعكبرى والقيروانى من هذه المآخذ سمة لازمة من سمات الشاعر يتعذر عليه الإقلاع عنها . مع ميلهم إلى إثبات أن المتنبى كان يعمد إلى ذلك قصداً ليدلل على علمه باللغة وبراعته فى سبك الألفاظ سبكاً مخالفاً ألفه الناس واعتادوه من الشعراء ومن ثم أوقع نفسه فى الغموض والالتواء

والواقع أن تلك الأبيات التي ساقوها لا تعدو أن يكون بعضها معيباً في ذاته أما أن تكون دليلاً على قصور وفساد الخاطر فإنها لا تنهض أو تدل على ذلك

ولا شك أن المتنبي كان يتعسف أحياناً في أساليبه تعسفاً لا يصم الآذان لكن مما لا شك فيه أيضاً أن مئة بيت أو أكثر لا تسقط بحال ديواناً كاملاً

" ولقد رأيتك – وفقك الله – لما احتفلت وتعلمت وجمعت أعوانك واحتشدت وتصفحت هذا الديوان حرفاً حرفاً واستعرضته بيتاً بيتاً ، وقلبته ظهراً وبطناً ، ولم تزد على أحرف تلقطتها وألفاظ تمحلتها ادعيت في بعضها الغلط واللحن ، وفي أخرى الاختلال والإحالة ، ووصفت بعضها بالتعسف والغثاثة وبعضاً بالضعف والركاكة ، وبعضاً بالتعدي في الاستعارة . ثم تعديت بهذه السمة إلى جملة شعره فأسقطت القصيدة من أجل بيت ونفيت الديوان لأجل قصيدة . وعجلت الحكم قبل استيفاء الحجة وأبرمت القضاء قبل امتحان الشهادة [٢٩] .

ويبدو أن الجرجاني بهذه العبارة كان يعني الصاحب بن عباد الذي تحامل على أبي الطيب وجمع له من ديوانه قرابة ثلاثين بيتاً رأى في كل منها عيباً من العيوب التي تقعد بها عن الوصول إلى المستوى الجمالي المنشود .

والصاحب بهذا الحكم متجن على الشاعر . فهذا القدر لا يكاد يذكر بالنسبة لهذا الديوان الضخم الذي يبلغ ما حواه من الأشعار خمسة آلاف وأربعمائة وأربعة من الأبيات [٣٠].

والواقع أن استخفاف المتنبي بقواعد اللغة قضية لا يقرها تاريخ المتنبي نفسه . فالذي يجلس بين يديه ابن جني ويتصدى لابن خالويه ، وينقل عنه أبو علي

الفارسي ، ويقرأ عليه عضد الدولة كتاباً فى اللغة لا يستطيع أن يستخف باللغة وهو من كبار رجالها كما يقرر ذلك خصومه .

أما ما قيل من أنه كان يستخف بقواعد اللغة ويغرم بغير المشهور منها ويتلاعب بالألفاظ أحياناً لإشعار منافسيه بعلو كعبه فى الصناعة . أو أنه كان يستجهل القوم فيصوغ لهم من الألفاظ ما لا يهتم بتنقيحه ، مكتفياً بأن يستر عيوبه ببيت من الحكمة والأمثال يذكره عقب كل فقرة من قصائده (٣١) .

وما قيل من أن: ذلك أثر من آثار حرص المتنبى ، فهو يبدأ البيت حسنًا سهل المطلع واضح الفكرة ثم يصعب إتمامه فيعز عليه أن يضيع البيت وفيه هذه الحسنات فيتمه بأى شكل (٣٢) .

وأيضاً ....

لأن كثيرين من الناس يحبون أن يضعوا صعوبات وهمية أمام أنفسهم يخادعون بها أنفسهم ليقتنعوا بأنهم يستطيعون مايريدون متى أرادوا (٣٣)

أن شاعرنا تنتابه من آن لآخر نوبة أشبه بالحمى يهذى فيها بالغريب ويخرج كل ما بقى عالقاً فى صورة أرجوزة يخفف بها ما كان مرتكزاً على صدره من هذا الحمل الثقيل

نقول أن ذلك كله مردود عليه بالسؤال بسيط : من هم الناس الذى كان يستجهلهم المتنبى ؟؟ أليسوا هم الناس أنفسهم الذين كان يسوق لهم الحكمة التى تحتاج إلى ذهن مرهف ونفس واعية بصيرة بتاريخ القوم ، خبيرة بمجريات الأمور من حولهم وبكل ما يصادف هوى فى نفوسهم لتفهمها وتتبصر ما فيها ؟؟؟

ثم ....

أى حمى تلك التى كانت تنتاب الشاعر من حين لآخر يهذى فيها بالغريب ؟؟. لقد أبدع أبو الطيب أجمل قصائده (الحمى) عندما انتابته تلك الحمى المزعومة .

والحق ما قرره الأستاذ على النجدى ناصف من أن التعقيد والإغراب لم يكونا عند المتنبى طبيعة راسخة ولا صفة ملازمة ، ولكنه كان عارضاً طارئاً تقتضيه أسباب موقوتة فيبقى ما بقيت ويمضى على أثرها حين يزول [٣٥] .

وما أكثر دواعى اختلال المزاج والإعياء فى حياة هذا الشاعر الكبير ، الذى يدلنا التاريخ أنه - أى التاريخ - يأبى الإباء كله أن يخلد فناً كل مقوماته الشذوذ والتعقيد والغرابة والاضطراب اللهم أن يكون تاريخاً للنقائض وهذا ما لم تسمع عنه البشرية أبداً [٣٦] .

علاوة على ذلك ، أى عالم ذاك الذى لايهفو وأى جواد ذاك الذى لا يكبو ؟؟ إنها الطبيعة البشرية القاصرة على الدوام ، والتى تستشعر هذا القصور فنراها تحاول الإجادة والتجويد بحثاً عن كمال منشود تطمح دائماً إلى تحقيقه .

وحسبنا دليلاً على منزلة الرجل أن شاعرًا كبيرًا كابن دينار الذى رويت عنه كتب الزجاج وثعلب وابن الأعرابى وغيرهم يمدحه بقصيدة مطلعها :

ربَّ القريض ذلك الحلُّ والرحلُ ... ضاقت إلى العلم إلا نحوك السبلُ

تضاءل الشعراء اليوم عند فتىً ... صعاب كل قريض عنده ذلل

الهوامش

1. دلائل الإعجاز .
2. مقدمة كتاب الشعر والشعراء .
3. العمدة / جـ١ .
4. مقدمة ابن خلدون/ مختارات من تراثنا / وزارة الثقافة والإرشاد / مصر/١٩٦٠ .
5. البيان والتبيين للجاحظ .
6. عباس حسن/ المتنبى وشوقى /دار المعارف / مصر ١٩٦٤.
7. تاريخ النقد الأدبى إلى القرن الرابع الهجرى /دار المعارف /مصر.
8. أسرار البلاغة .
9. هو الحسين بن بشر المتوفى سنة ٣٧٠هـ؛ وهو صاحب كتاب الموازنة . كان حسن الفهم جيد الدراية والرواية مريع الإدراك ، له شعر حسن واتساع تام فى الأدب/ معجم الأدباء / ياقوت .
10. البيان والتبيين .
11. سر الفصاحة .
12. عيار الشعر.
13. الصناعتين / باختصار.

١٤. الشعر والشعراء .

١٥. مقدمة شرح ديوان الحماسة .

١٦. يوسف البديعى /الصبح المنبى عن حيثية المتنبى /دار المعارف / مصر ١٩٦٣ .

١٧. عبد الوهاب عزام/ ذكرى أبى الطيب بع ألف عام طبعة الجزيرة بغداد ١٩٣٦ .

١٨. د. صاحب أبو جناح/ مجلة المورد /العراق/ المجلد السادس / العدد الثالث ١٩٧٧.

١٩. الابتداعية: ترجمة معنوية لكلمة *Romantique* .وفى خروج أبى الطيب وابن هانى الأندلسى وأبى العلاء المعرى وأضرابهم على أساليب العرب المخصوصة وإطلاقهم الشعر من قيود الصناعة ما يشبه تلك الطريقة / أحمد حسن الزيات /تاريخ الأدب العربى دار نهضة مصر.

٢٠. النقد المنهجى عند العرب .

٢١. ممن ألف كتباً فى المتنبى: ابن جنى وأبو القاسم الأصفهانى ، وابن فورجة وابن بسام وأبو العلاء المعرى وأبو حيان التوحيدى وعلى بن عيسى الربعى والعروضى وغيرهم .

٢٢. د. صاحب أبو جناح /مجلة المورد/ مرجع سابق .

٢٣. السابق .

٢٤. نفسه .

٢٥. الديوان بشرح الواحدى وشرح البيان .

٢٦. المتنبى بين ناقديه / دار المعارف/ مصر ١٩٦٤ .

٢٧. الفتح على أبى الفتح .

٢٨. الفتح الوهبى .

٢٩. الجرجانى /الوساطة بين المتنبى وخصومه .

٣٠. زيادات ديوان المتنبى/ (قال الإمام أبو الحسن على بن أحمد المعروف بالواحدى رحمة الله عليه : هذا آخر ما اشتمل عليه ديوان أبى الطيب المتنبى الذى رتبه بنفسه وهو خمسة آلاف وأربعمائة وأربع وتسعون قافية / ذكرى أبى الطيب بعد ألف عام مرجع سابق .

٣١. محمد عبد الجواد/ صحيفة دار العلوم .

٣٢. د. محمد كامل حسن / الكاتب المصرى / نوفمبر ١٩٤٥ .

٣٣. السابق .

٣٤. عباس محمود العقاد وآخرون / أبو الطيب المتنبى حياته وشعره / مجموعة مقالات / المكتبة الحديثة بيروت ط١ /١٩٨٢.

٣٥. الكاتب المصرى / عدد يناير ١٩٦٤ .

٣٦. د. محمد عبد الرحمن شعيب / المتنبى بين ناقديه دار المعارف ، مصر ١٩٦٤ .

الفصل الخامس :

المتنبي والفلسفة اليونانية

تعرف دائرة المعرف البريطانية الحكمة بأنها :

تؤلف نوعاً من الرسائل الأخلاقية التى تظهر طبيعة الخير وتتكفل بأخبار الطائفة التى كتبت من أجلها عن الوسيلة التى يتسنى بها تحقيق الخير [1]

وقد عرفت البشرية الحكمة فى معظم أطوارها ....

ففى الشعر الجاهلى استمد الحكيم العربى حكمته من تجارب الحياة اليومية ومن التفكير الشخصى الفطرى .

وكان العرب فى الجاهلية إذا تنازع الرجلان منهم فى الشرف تنافرا إلى حكمائهم [2] .

وقد أورد الجاحظ أسماء جماعة من حكماء الجاهلية ممكن كان يذكر لهم بالقدر والرياسة والبيان والحكمة والخطابة ، والدهاء والفطنة ، من مثل : لقمان بن عاد ، لقيم بن لقمان ، مجاشع بن دارم ، سليط بن كعب ، لؤى بن غالب ، قصى بن كلاب ، .... وغيرهم [3] .

وديوان الشعر الجاهلى حافل بالحكم .. كقول طرفه بن العبد [4] :

قد يبعثُ الأمر العظيم صغيره   حتى تظل له الدماء تصيب

وقوله :

ستبدى لك الأيام ما كنت جاهلاً   ويأتيك بالأخبار من لم تزود يخذف

وقول عبيد بن الأبرص :

عن المرء لا تسأل وسل عن قرينه   فكــل قــرينٍ بالمقــارن يقتــدى

وقول زهير بن أبى سلمى :

ومن يكُ ذا فضلٍ فيبخل بفضلهِ   علــى قومــه يُســتغنَ عنــه ويــذمم

وهى كما نرى فلسفة بدائية تتفق وبساطة العصر وطبيعة الحياة القبلية التى تحتاج إلى آراء ونظريات ترسم لها الحدود والشرائع التى ينبغى أن يتحرك سلوك الفرد من خلالها ، وتحدد بالتالى علاقته بالآخرين .

وجاء الإسلام ...

ونزل القرآن الكريم هدى ورحمة للعالمين ، فكان جامعاً لكل المبادىء والقيم السامية ، ومخططاً للنهج السليم الذى ينبغى أن يسير عليه من يبغى السعادة فى الحياة الدنيا والآخرة .

والقرآن الكريم يشيد بالحكمة ....

(وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَـٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ۚ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿١٢﴾) لقمان /١٢.

وكان الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم يدعو إلى تعلم الحكمة لأنها ثمرة التجربة الإنسانية المتجددة المتغيرة [٥]:

.... الحكمة ضالة المؤمن .

.... ما أخلص عبد الله أربعين يوماً إلا وظهرت ينابيع الحكمة من قلبه ولسانه

.... لا تضعوا الحكمة عند غير أهلها فتظلموها ، ولا تمنعوها أهلها فتظلموهم

.... خذوا الحكمة ولو من ألسنة المشركين .

وقد نما مدلول الحكمة بعد الإسلام وتطور وأخذ شكلاً جديداً بتطور المجتمع العربي الذى هزته الدعوة الإسلامية هزة شديدة ، واقتلعت العادات الضارة والأخلاق الفاسدة من الجذور.

وفى الحديث الشريف فى الصحيحين :

.... لا حسد إلا فى اثنين : رجل أتاه الله مالاً فسلطه على هلكته فى الحق ورجل آتاه حكمة فهو يقضى بها ويعلمها.

ويتضح المفهوم الإسلامى للحكمة فى هذا الحديث .. حيث ترتبط الحكمة بالعلم . لكن دائرة العلم فى العصر الأموى تتسع نظراً لاتجاه الأمويين للترجمة اليونانية – فى نطاق ضيق – فتتسع تبعاً لذلك دائرة الحكمة لتشمل من يدرسون الفلسفة ويعالجون أمور الكيمياء [٦] .

ويمهد هذا العصر للتغيير الذى طرأ على مدلول الحكمة بعد ذلك . فقد جاء العصر العباسى وازدهرت فيه حركة النقل والترجمة عن الثقافات الهندية والفارسية واليونانية . ونشط العرب نشاطاً ظاهراً فى احتكاكهم بغيرهم من الأمم ذات الحضارات الراسخة والاستفادة منها وإكمال النقص فيها.

ففى خلافة جعفر المنصور ازدهرت حركة الترجمة فنقل عبد الله بن المقفع بعض الكتب فى السلوك من الفارسية إلى العربية ، فترجم " كليلة ودمنة " من

الفارسية إلى العربية باغياً من وراء ذلك وضع نموذج لكلام حكماء الشرق أما متأدبي العرب (٧) .

ومن الكتب التي ترجمت "الجمهورية" لأفلاطون،" الطبيعيات والخلقيات " الشعر والخطابة لأرسطو.

وفي عصر المأمون ازدهرت حركة الترجمة . وعندما انتصر على الروم (٢١٥هـ) اشترط في معاهدة الصلح أن يعطيه الروم الكتب الفلسفية المخزونة في أقبيتهم بدلاً من المال . وعلى ذلك فقد تدفقت الكتب الفلسفية اليونانية على المترجمين فشمروا عن سواعدهم ليشهد القرن الثالث الهجري أنشط عملية لنقل التراث الأجنبي إلى اللغة العربية : فترجم إسحق بن حنين (٢٩٨هـ) عن اليونانية كتباً في الطب ، وأخرى في الفلسفة .

وكان لكتاب "كليلة ودمنة" أثر خطير في تغيير مجرى الحكمة . فهنا الطير والسباع والبهائم تنطق وتتكلم ، ويدخل الخيال والفن في صياغة الطريقة التي تلقن بها أصول الحكمة لأن :

" بلاد الشرق هي مهد القصص والأمثال المضروبة على ألسن الحيوان والطير والهند خاصة هي مهد القصص الحكمية التي شاعت في أرجاء الأرض ، وانتقلت إلى بلاد الصين والتبت وبلغت أوروبا في العصور القديمة " (٨) .

وأخذ أبو نصر الفارابي (٢٥٩هـ) على عاتقه مهمة تعريب منطق أرسطو ووضعه في ألفاظ تلائم الثقافة العربية والجديد الذي أدخله على مدلول" الحكمة هو الربط بينهما وبين الفلسفة حتى اختلط المفهومان عنده اختلاطاً واضحاً (٩)

وقد شاع هذا المدلول الذى عمقه وأصله الفارابى إلى حد أن العرب كانوا يترجمون كلمة (فلسفة) اليونانية فى نصوصهم الأولى إلى اللغة العربية بكلمة (حكمة).

وفى هذا القرن - الرابع الهجرى - تمثلت العقلية العربية كافة الثقافات العالمية . وعكست الحكمة هذا التمثيل فكانت مثل: "الإسفنجة" التى تشربت الأفكار الجديدة وصاغتها صياغة نظرية فلسفية لتصبح نبعاً فياضاً يرتاده طلاب العلم والأدب .

أما " المثل" فقد اختلط مفهومه بالحكمة فى كثير من المؤلفات الشرقية قديمها وحديثها . وقد جعل أرسطو الإيجاز شرطاً ضرورياً للمثل وأخذ عنه مفكروا الشرق هذا التعريف وبثوه فى مؤلفاتهم . فهذا أبو عبيد بن سلام يرى ضرورة اجتماع ثلاثة خلال فى المثل :

١-إيجاز اللفظ ٢- إصابة المعنى. ٣- حسن التشبيه [١٠]

هذا.. ويمكن القول بأن الصلة وثيقة بين أدب الحكمة وأدب الأمثال . فكلاهما تجربة نابعة من الواقع اليومى للناس ، وكلاهما يعتمد على صياغة لغوية معبرة وموجزة ومتقنة ، وإن كان المثل يتحلل منه أحياناً حين ينبع من أفواه العامة وحياتهم.

وإذا كان عهد ما سبق إيجازه عن انتشار الفلسفات أسبق من مولد المتنبى بما يقرب من نصف قرن ، فقد كان هذا العهد بمثابة البوتقة التى انصهرت فيها

كل هذه الفلسفات ، حتى تناولها الفارابى معاصر المتنبى ورفيقه فى بلاط سيف الدولة الحمدانى.. وأتم بنيانها .

يقول ابن خلدون (١١):

ومنذ أيام الفارابى أحصيت كتاب أرسطو أو الكتب المنسوبة إليه لم تتغير فى جملتها وصارت تفسر وتشرح على طريقة الفارابى وأولها الكتب الثمانية فى المنطق ، وهى : كتاب المقولات ، كتاب العبارة ، كتاب القياس ، كتاب البرهان كتاب المواضع الجدلية ، كتاب الأقوال المغلوطة ، كتاب الخطابة ، أما "الكليات" فهو مقدمة لهده الكتب .

والواقع أن قائمة مؤلفات الفارابى تدل على شمول ثقافته واتساع معارفه كما تدل على صلته الوثيقة بالفلسفة الإغريقية وبأفلاطون على وجه الخصوص وبأرسطو على وجه أخص ، فمن مؤلفاته : كتاب فى أغراض أرسطو طاليس كتاب فى شرح البرهان لأرسطو طاليس ، كتاب شرح الخطابة له ، وكتاب المغالطة له ، وكتاب شرح القياس له ، وشرح كتاب الأخلاق له ، وكتب أخرى كثيرة

ومن الثابت تاريخياً أن المتنبى التقى بالفارابى فى بلاط سيف الدولة الحمدانى إذ أن الفليسوف عاش فى كنف سيف الدولة فى حلب الشهباء منذ عام ٣٣٣هـ حيث رحب به الأمير وأفسح له صدره وأغدق عليه ماله وعطفه ، وغمره بإعجابه وتبجيله . وظل الفارابى منعماً مبجلاً فى بلاطه لمدة ست سنوات حتى توفى عام ٣٣٩ هـ .

وقد لجأ المتنبى إلى كنف سيف الدولة عام ٣٣٧هـ - أى قبل وفاة الفارابى بسنتين - ولا يستبعد أنه كان يحضر مجالس الفارابى الفلسفية وشروحه على كتب أرسطو وغيره من فلاسفة اليونان . ولا يستبعد أيضاً أن ثمة صداقة متينة كانت تربط الفيلسوف بالشاعر ، فقد ملك كلاهما ناصية الفكر الفلسفى والحكمى فى إمارة سيف الدولة ، وكانا موضع الإعظام والتبجيل فى بلاط الأمير [١٢] .

ويقول القاضى الجرجانى عن المتنبى [١٣]:

راح يقرأ الفلسفة والمنطق ، ولاشك فى استفادته من فلسفة الفارابى بحلب الشهباء ، كما تأثر بمقولات أرسطو ، وعكف على كتب التصوف حتى فهم المعانى منه والمرامى .

ويقول الدكتور شوقى ضيف [١٤]:

ولعله - يقصد المتنبى - كان يحضر محاضرات الفارابى التى كان يلقيها وأكبر الظن أنه قرأ مؤلفاته ومؤلفات غيره من المتفلسفة ، وأثر ذلك واضح فى شعره أشار إليه معاصروه ومن جاء بعدهم مراراً وقد ألف الحاتمى - معاصره - رسالة مشهورة فى المقارنة بين بعض أبياته الحكيمة وحكم أرسطو ، وكشف عن الصلة بينهما وبين تلك الحكم حتى لتصبح أحياناً كأنها نظم لها ، وإن أعطاها أبو الطيب من نفسه وخياله وصيغه الشعرية ما جعلها تبدو وكأنها خالصة ومن بنات أفكاره

ويقول الدكتور محمد عبد الرحمن شعيب [١٥]:

ولا نستبعد أن يكون المتنبى قد قرأ بعض مؤلفات أرسطو التى ترجمها الفارابى ، وتأثر بما قرأ لأنه كان شغوفاً بالقراءة كثير الاطلاع قوى الحافظة واسع

الإدراك ذلك فضلاً عن أن انتشار الأفكار وتسرب الآراء لا يحتاج إلى مدرس يلقنها أو مدرسة تعلمها لأن طبيعة العلم تأبى إلا التسرب .

ويقول الأستاذ جميل جابورى (١٦) :

على أن الذى لاشك فيه أن المتنبى تثقف بالفكر اليونانى ونهل من معانيه بعض المعانى فانبثت فى تضاعيف شعره وجاءت شاهدة على ثقافته العميقة الجذور .

وقد أورد أبو البقاء العكبرى فى شرحه على ديوان المتنبى الكثير من المقابلات بين حكم أبى الطيب وأقوال " الحكيم" الذى لم يذكر اسمه ولم ينص عليه صراحة وربما كان العرب فى ذلك الوقت تعنى أرسطو حين تتكلم عن " الحكيم" .

ورغم الاتفاق على تأثر المتنبى بالفلسفة اليونانية سواء عن طريق القراءة أو حضور محاضرات الفارابى ، إلا أن صاحب "الحكمة فى شعر المتنبى "(١٧) يرى غير ذلك ، فيقول :

فالمتنبى لم يذهب إلى كتب أرسطو ليقرأها ثم ينقل حكمه منها ، فهذه قضية يصعب البرهان عليها إذا لم يقل المتنبى هذا ولم ينقل المؤرخون المعاصرون لنا صورة من ثقافته اليونانية .

ويتفق الأستاذ أحمد أمين مع هذا الرأى فيقول (١٨) :

والمتنبى لم يثقف ثقافة يونانية ، وإنما ثقف ثقافة عربية خالصة .

ونحن هنا أمام رأي غريب على نحو ما . فلم يقل أحد بأن ثقافة أبي الطيب المتنبي الأساسية هي الثقافة اليونانية . وكل ما قيل أنه (قرأ) ، أو (سمع) ، أو (تأثر) بتلك الثقافة في مدينة تضطرم بالحركات الفكرية والأدبية ، وفي بلاط أمير جليل ازدحم بالمثقفين من كافة الاتجاهات .

وقبل أن نستطرد ...

وكي تكون أمامنا صورة واضحة عن هذا التأثر ، لنستعرض ما قاله أرسطو وما صاغه المتنبي – ومن خلال نفس الأفكار – شعراً :

قال أرسطو: الفرق بين الحلم والعجز أن الحلم لا يكون إلا عن قدرة ، والعجز لا يكون إلا عن ضعف ، فليس للعاجز يتسمى بالحليم .

وقال المتنبي :

كل حِلْم أتى بغير اقتدار   حجة لاجيء إليها اللئام

وقال أرسطو: على قدر بصيرة العقل يرى الأنسان الأشياء . فالسالم العقل يرى الأشياء على قدر حقائقها ،والنفس الكئيمة ترى الأشياء بطبعها .

وقال المتنبي :

ومن يكُ ذا فم مريض   يجد مُراً به الماء الزلالا

وقال أرسطو:

على قدر المهم تكون الهموم .

وقال المتنبى:

أفاضل الناس أغراضٌ لذا الزمن   يخلو من الهم أخلاهم من القطن

وقال أرسطو : النفس الذليلة لا تجد ألم الهوان ، والنفس العزيزة يؤثر فيها يسير الكلام .

وقال المتنبى :

مـن يهـن يسـهل الهـوان عليـه   مـــا لجـــرح بميـــت إيـــلامُ

وقال أرسطو: الكلام والملال يتعاقبان الأجسام لضعف آلة الجسم لا لضعف آلة الحس .

وقال المتنبى :

وإذا الشيـخ قـال أفٍ فمـا مَــ   ــل حيــاة ولكــن الضـعف مــلا

وبهذا القدر نكتفى . ونحيل من يرغب فى المزيد إلى كتاب " الرسالة الحاتمية " التى جمع فيها الحاتمى ما يقرب من مائة بين منقولة من حكم أرسطو

وما يهمنا الآن هو أنا إذا اتفقنا مع ما ذهب إليه الدكتور يسرى محمد سلامة والأستاذ أحمد أمين مع عدم تأثر المتنبى بالفلسفة اليونانية ، فإن السؤال الذى يطرح نفسه وبإلحاح هو:

هل نحن أما م مصادفة تتوارد فيها الخواطر والأفكار إلى هذا الحد الذى يكاد يكون تطابقاً ؟؟؟ .

يجيب الأستاذ أحمد أمين [١٩] :

إن الحكم ليست وقفاً على الفلسفة ولا على من تبحروا فى العلوم والمعارف وإنما هى مشاع بين الناس يستطيعهما العامة كما يستطيعهما الخاصة .

ويلتقط الدكتور يسرى محمد سلامة الخيط ويكمل [٢٠] :

فالمعانى قد تتوارد بين كاتبين لم يقرأ أحدهما للآخر . بل ولم يسمع أحدهما عن زميله فليست دراسة المعانى طريقاً مأموناً، لأن الأفكار مطروحة فى الطريق كما يقول الجاحظ ، ولكن طريق التعبير عنها هى طريقنا الهادى الذى نسير عليه

وبصورة أخرى يعيد الدكتور محمد مندور طرح السؤال [٢١]:

هل من الصحيح أن المتنبى لم تكن له ثقافة فلسفية ، وهل من الممكن أن يصل كل هذه الآراء فى الحياة والناس بنفسه دون ثقافة سابقة فى هذا الاتجاه ؟؟؟

ثم – وهذه أهم مسألة – هبه انتزع هذه الآراء من الحياة ، فهل كان يستطيع أن يصوغها تلك الصياغة الفلسفية التى صاغها دون ثقافة ؟؟؟

ويجيب الدكتور يسرى محمد سلامة على السؤال بإجابة تختلف وتصل إلى حد الاعتراف الصريح [٢٢]: الإجابة القريبة من الصواب التى نراها بعد استقراء شعر المتنبى ودراسة صلاته فى بلاط سيف الدولة .أنه تثقف فى مصادر كثيرة أهمها الثقافة الفلسفية اليونانية التى ظهرت انطباعاتها جلية واضحة فى شعره بعامة وحكمه بخاصة ، ولا ينفى هذا انتفاعه ببقية المصادر.

ويقطع المتنبى كل قول عندما يعترف قرأ لأرسطو وغيره:

من مبلغ الأعراب أنى بعدها جالست رسطاليس والإسكندرا

ونحن لا نرى ضيراً مطلقاً فى انتفاع المتنبى بأرسطو أو غيره من الفلاسفة لأن الفلسفة - وهى صورة من صور التفكير العقلى - لم يقصد بها أصحابها أن تكون بنجوة من حياة المفكرين إنما انتهوا منها وأسلموها لجيلهم وللأجيال من بعدهم لتكون مناهج فكرية وقواعد خلقية وأسساً سلوكية وغيرها .

وتتفق كلمة كثير من النقاد على أن أبا الطيب من أبرع الشعراء فى الاهتداء إلى الحكمة وفى ضرب المثل فى مختلف المناسبات الإنسانية وكأنه صاغ للناس كل ما يمكن أن يجرى فى خواطرهم مما أتاح لشعره سيرورة لم تتح لشاعر عربى من قبله ولا بعده . ولا يكاد يوجد أديب عربى - منذ عصره - إلا وهو يحفظ من حكمه ويستشهد بها فى كتاباته وأحاديثه .

والواقع أن أبا الطيب المتنبى قد وفق هذا المجال أيما توفيق حتى اشتهر بين النقاد ومؤرخى الأدب باسم : "المتنبى الحكيم" ولعل مبعث هذا قوله حينما سئل عن نفسه وعن أبى تمام البحترى فقال :

أنا وأبو تمام حكيمان والشاعر البحترى [٢٣] .

ويرى ابن الأثير أن المتنبى أنصف فى هذا الحكم أيما إنصاف ، وأعراب فيه عن متانة علمه بالميزة الفنية لكل منهم .

وسوف تقودنا دراسة التطور الذى لحق بشعر المتنبى أثناء اتصاله بالفارابى فى بلاط سيف الدولة إلى التعريف على خصيصة من أهم خصائص شعره فى تلك الحقبة ، وهى التفكير المنظم الدقيق ، وتوليد المعنى بذكاء ، وحدة التعبير ، والتدليل على قضاياه دون انفعال ، والعناية بأقيسة المنطق .

ولنتأمل هذا الشاعر وهو يعزى سيف الدولة فى وفاة عبد له يدعى " يماك"

وإنى وإن كان الدفينُ حبيبى   حبيبٌ إلى قلبى حبيبُ حبيبى

وقد فارق الناسُ لأحبة قبلنا   وأعيا دواءُ الموت كل طبيبِ

سُبقنا إلى الدنيا فلو عاش أهلها   مُنِعْنا بها من جيئة وذهوبِ

تملكها الآتى تَمَلُّك سالبٍ   وفارقها الماضى فراق سليب

ولا فضل فيها للشجاعة والندى   وصبر الفتى لولا لقاء شعوب

وأوفى حياة الغابرين لصاحبٍ   حياة امرىءٍ خانته بعد مشيب

وهنا نرى أن المتنبى لا يلقى حكماً تعتمد على الرنين اللفظى ، أو التلاعب بالفنون البلاغية ، لكنه يناقش قضية الموت حتى يقنعنا بأنه هدية الحياة الكبرى وأنه استمرار لها وضمان لبقائها فنجده يتطرق من الخاص إلى العام ، يساند فى ذلك القياس المنطقى الذى يجعل من "يماك" حبيباً للشاعر لأنه حبيب لسيف الدولة وسيف الدولة حبيب المتنبى ،إذن فـ"يماك" حبيب المتنبى .

والموت قدر مكتوب لا حيلة للإنسان فيه ، فكم من أحبة فارقوا أحبائهم قبلنا وكم حار النطاسيون فى الموت ومنوا بالخيبة حين قاوموه .

وفى النهاية . نقول أن من يظن لأبى الطيب فلسفة تشمل العالم وتحل مشاكل الكون إنما يخطىء كبيراً وربما قارب ذلك أو أقترب من تلك المنزلة أبو العلاء المعرى لا المتنبى . فلإن كان أبو العلاء فيلسوفاً يتشاعر ، فإن أبا الطيب شاعر يتفلسف . ذلك لأن شرط المذهب الفلسفى أن يطبع كل تفكير الفيلسوف ومعتقداته وجميع مظاهر سلوكه بطابع الوحدة الفكرية بحيث نستطيع أن ندرك الحقيقة التى يؤمن بها فى جميع أقواله وآرائه وكل معتقداته مادامت دائرة فى مجال فلسفى واحد ، وبحيث تعد جميعها مظاهر مختلفة لحقيقة فلسفية مختلفة . فإذا ما تضاربت أو تعارضت هذه الأمور ذات الوشيجة القوية بعضها مع بعض دل ذلك على خلل فى التفكير أو فساد فى المنهج . وذلك ما يطعن فى صحة القضايا التى حققها ،وفى صحة تفكيره – بوصفه فيلسوفاً – يتخطى المظاهر والأشكال إلى الأسس والأصول .

ومن هذا المنطلق نقرر أن أبا الطيب المتنبى ليس فيلسوفاً له مذهب قائم على البحث والاستنباط ، وإنما صاحب حكم وقضايا ، تفيض بها نفس عبقرية فيكتب لها الخلود لأنها اكتست ثوباً شعرياً جميلاً صادف الهوى والإعجاب فى وجدان الناس .

الهوامش

1. دائرة المعارف البريطانية /جـ٢٣.
2. محمود شكري الألوسي /بلوغ الإرب في أحوال العرب :جـ١ .
3. الجاحظ – البيان التبيين .
4. د. يسري محمد سلامة – الحكمة في شعر المتنبي – دار المعارف بمصر ١٩٨٢ .
5. ابن عبد ربه – العقد الفريد .
6. الحكمة في شعر المتنبي /مرجع سابق .
7. السابق .
8. د. عبد الوهاب عزام – مقدمة كليلة ودمنة .
9. الحكمة في شعر المتنبي – مرجع سابق .
10. نفسه .
11. ابن خلدون / مقدمة ابن خلدون/ مختارات من تراثنا وزارة الثقافة والإرشاد بمصر ١٩٦٠.
12. الحكمة في شعر المتنبي / مرجع سابق .
13. الجرجاني/ الوساطة بين المتنبي وخصومه / ط صيداء ١٩١٣.
14. فصول في الشعر ونقده / دار المعارف بمصر ١٩٧١.

١٥. المتنبى بين ناقديه / دار المعارف بمصر ١٩٦٤.
١٦. مجلة المورد/العراق/ عدد خاص عن المتنبى / العدد الثالث المجلد السادس ١٩٧٧.
١٧. د.يسرى محمد سلامة / مرجع سابق.
١٨. أبو الطيب المتنبى / حياته وشعره/ مقالات لمجموعة من الكتاب / المكتبة الحديثة /بيروت ١٩٨٢.
١٩. السابق.
٢٠. الحكمة فى شعر المتنبى / مرجع سابق.
٢١. النقد المنهجى عند العرب / دار المعارف بمصر.
٢٢. الحكمة فى شعر المتنبى.
٢٣. يوسف البديعى / الصبح المنبى عن حيثية المتنبى / دار المعارف بمصر ١٩٦٣.

الفصل السادس :

أثر مصر فى شعر المتنبى

عاشت مصر تاريخها كله على العلم وأهله ...

عالم مصر الأول ، أمحوتب ، هذا المهندس الرائع الذى وضع تصميم مدينة سقارة بناها . ومن أيامه – ومن قبله أيضاً – لم تتوقف شعلة العلم فى مصر أبداً ولم يخل عصر من عصورها من علماء كبار.

وبعد علماء مصر القديمة الذين اخترعوا الهندسة والطب والكيمياء والقانون والأخلاق ، جاء علماء الإسكندرية ، إسكندرية البطالمة .

كانت جامعة كبرى ملأت الدنيا نوراً . لم يزدهر العلم فى مدينة قبل العصور الحديثة كما ازدهر فى الإسكندرية :فلاسفة ورياضيون وجغرافيون ومؤرخون علماء ملأوا طباق الدنيا علماً : واحد استخرج وزن الأرض وآخر قاس بعد الشمس

وعلماء مصر الإسلامية لا يحصيهم عد . ففي يوم من الأيام جمعت الفسطاط علم الدنيا كله وفى كل نواحى عالم الإسلام ركدت العقول فى آواخر القرون الوسطى إلا فى مصر. وكيف يمكن أن يكون عصر ركود ذلك العصر الذى عاش فيه أمثال : السخاوى والسيوطى وابن حجر العسقلانى والمقريزى وأبى المحاسن والقلقشندى والنويرى وابن منظور والمرتضى والزبيدي عبد الرحمن الجبرتى [1]

وعندما نزل أبو الطيب المتنبى مصر كان يحكمها كافور بن عبد الله الإخشيدى ، الخادم الأسود الذى اشتراه سيده أبو بكر محمد بن طغج الإخشيد وأصل كافور يرجع إلى الحبشة كما ذكر بعض المؤرخين ، أو إلى النوبة كما ذكر

المتنبى فى بعض شعره . وقد رباه الإخشيد وأعتقه . ثم رقاه لما رأى فيه من الحزم والعقل وحسن التدبر حتى صار من كبار قادته .

وتُروى عن كافور روايات كثيرة عن تواضعه للعلماء [٢]. ولم يكن اهتمامه بالحياة الأدبية والفكرية قاصراً على مجلسه بالفسطاط . وإنما امتدت رعايته للعلم والأدب إلى جميع أركان البيئة المصرية . ولعل هذا ما أغرى العلماء للوفود إلى مصر من الكوفة والبصرة وبغداد . ومن علماء مصر فى تلك الحقبة أحمد بن جعفر الديورى الذى ألف (المهذب فى النحو) ، وأبو جعفر بن النحاس الذى ألف (معانى القرآن) و(شرح المعلقات) ،(طبقات الشعراء) وغيرهم .

وكان للمصريين مشاركة فى تفسير القرآن الكريم إذ رحل إليها كثير من العلماء فى طلبه ، كما فعل البخارى فى تفسيره عندما نقل شطراً كبيراً من الصحيفة المصرية فى التفسير تلك الصحيفة التى أشاد بها جلة العلماء من مثل ما قاله ابن حنبل عنها : " بمصر صحيفة فى التفسير لو رحل رجل فيها إلى مصر ما كان كثير" [٣] .

ذلك هو واقع مصر الفكرى والثقافى وقت أن جاءها أبو الطيب المتنبى ومهما كانت حقيقة التكهنات التى لجَّ فيها القدماء والمحدثون عن الاتصالات التى تسببت فى اتجاهه إليها ، وكونها قد تمت من قِبل الشاعر أو من قبل أولى الأمر فيها ، فالذى لا شك فيه أن مصر نجحت فى اجتذاب هذا الشاعر الكبير إليها

وفى مصر وقع أبو الطيب فى تناقض حاد مع نفسه .

إن عليه أن يمدح كافوراً ويفرغ عليه أطيب الثناء .. ولقد فعلها من قبل سيف الدولة ، وعليه الآن أن يفعلها معه .. ، إنه اختياره الذى سعى إليه بقدميه ...، لكن

كيف يمدح هذا الأسود البغيض الذى لا ينجز وعداً ، والذى لا مفر من مدحه ؟؟؟.

وهل سيبقى له بعض احترام أو تقدير فى نفوس أولئك الذين يعرفون آراءه وأفكاره من المثقفين المصريين المتتبعين لشعره فى مصر . أولئك الذين ينتظرون بلهفة ماذا يقول فى أميرهم النوبى – أو الحبشى – ذلك الشاعر الذى قال :

وإنما الناس بالملوك ولا تصلح عرب ملوكها عجم

عليه إذاً أن يمدحه ولا يمدحه فى آن ...

إنه يستطيع أن يتغفله ويقدم له الهجاء فى صورة المديح ، فهو أمام عبد نوبى جاهل لن يستطيع أن يميز بين المديح والهجاء .

لكن أيضاً ...

ماذا عن العلماء والأدباء والشعراء – فضلاً عن الذين ترفع عن مدحهم من كبار رجال الدولة – الذين يحيطون بكافور ؟؟. ماذا عنهم لو أنهم فهموا وأوغروا صدر الأمير تجاهه ؟؟؟.

كيف يتعامل مع هذه المعادلة الصعبة التى وضعته الظروف بين فكيها ؟؟؟

وهدته فطنته إلى الحل ..

إن عليه أن يستخدم فى مديحه سلاحاً ماضياً من أسلحته اللفظية التى خبر عيدانها أوسع خبرة . سلاح يُحَمِّلُ دسم المديح كل ما يمكن من سموم الهجاء المقذع والسخرية اللاذعة (٤) .

وهكذا وُجِد شعر المديح الهجائى فى كافوريات المتنبى . وهو نمط من الشعر لم يكن له به عهد فى شعره من قبل . إنه نبت مصرى خالص أنبتته الظروف التى أحاطت بالشاعر وضيقت عليه الخناق .

ولنتأمل نماذج من هذا اللون الجديد فى شعره ، ولنقلبه على وجهيه :

المدح والهجاء :

إنما يفخر الكريم أبو المسك بما يبتنى من العلياء

وبأيامه التى انسلخت عنه وما داره سوى الهيجاء

وبما أثرت صوارمه البيض فى جماجم الأعداء

وبمسكٍ يكنى به ليس بالمسك ولكنه أريج الثناء

لا بما يبتنى الحواضر فى الريف وما يُسبْى قلوب النساء

نحن أمام قرع بالعصا ، وتعليم مشوب بالاستخفاف والاستهزاء وإن تقنع فى ظاهره بامتداح أيامه وصوارمه . إنه يستصغر فرح كافور . بهذه الدار ، ويعلمه مؤنباً بما يجب أن يفخر به ويفرح ، وما يجب أن يترك الفخر به . ولا نستطيع أن نغفل تشبيهه كافوراً بالمسك ، وهو أمر لم يقدم عليه شاعر من قبله عندما يذكر ممدوحه بلونه، لكن أبا الطيب طرقها غير هيَّاب .

ويمدحه في الاتجاه نفسه ، فيقول :

وما طربي لما رأيتك لدعة ... لقد كنت أرجو أن أراك فأطربا إنه لم يعجب عند رؤيته الأمير كافور، لأنه كان يتوقع أنه سيملأ الدنيا ضحكاً حين يراه .لقد جعل من كافور قرداً يتزاحم الناس عليه ليروا الاعيبه فيطربوا ويضحكوا وعلى الدرب نفسه يمدحه فيقول

فإن نلت ما أملت منك فربما شربت بماء يعجز الطير ورده

والبيت مدح إذا فسرناه بأنه يريد أن يقول لكافور: إن بلغت أملي فيك فليس ذلك بعجب لأني قد أبلغ الممتنع من الأمور التي لا تدرك . والبيت أيضاً هجاء وذم إن فسرناه بأنه يريد أن يقول : إني إن أخذت منك عطاءً على بخلك وشحك فكم وصلت إلى المستصعبات من الأمور واستخرجت الأشياء المتنعة (٥). وفي كلا الحالين نحن نرى أنه يفخر بنفسه وبإصراره ويمتدحهما أكثر من مدحه لكافور ولايستعبد أن يكون الشاعر قد انتهى إلى هذا الأسلوب بعد أن لاحظ غرام المصريين بالتورية والتعبير ذي الدلالتين : الظاهرة والباطنة .

وفي مصر راح المتنبي يتخفى وراء عشق البدويات ، معرضاً عن الحضريات المموهات ذوات الجمال الزائف المصنوع ."رامزاً" بذلك إلى حياته التي يعيشها مقارناً إياها بصدق الحياة التي عاشها في حلب (٦) .

ما أوجه الحضر المستحسنات به كأوجه البدويات الرعابيب

حسن الحضارة مجلوب بتطرية وفي البداوة حسن غير مجلوب

إن الشاعر هنا يتعامل مع أسلوب جديد ، هو الأسلوب الرمزى . فهو لم يقصد فى نسيبه هذا إلى تصوير عواطفه نحو النساءعلى ما يفهم من ظاهره ،إنما كان يقصد حبيبه القديم سيف الدولة ، والحياة إلى جواره بعد أن قضت عليه الأيام – رغ أنفه – أن يفارقه (٧) نلحظ ذلك فى كثير من مدائحه لكافور .. ففى أول قصيدة أنشدها إياه يقول :

حببتك قلبى قبل حبك من نأى ... وقد كان غدراً فكن أنت وافياً

واعلم أن البين يشكيك بُعده ... فلست فؤادى إذ رأيتك شاكيا

فإن دموع العين غدر بربها ... إذا كن إثر الغادرين حواريا

لقد "رمز" إلى سيف الدولة بذلك الحبيب الغادر الذى ينازعه قلبه الشوق والحنين إليه ، فيزجر هذا القلب ، ويحمله على أن يكف عن ذكر من لم يرع عرى المودة والوفاء . إن اصطناع "الرمزية" فى أسلوبه إنما جاء تعبيراً عن آماله المحبوسة وعواطفه المكبوتة تحت وطأة السياسة المعادية لاتجاهه .

ويتعرض الجرجانى لقصيدة الشاعر فى وصف الحمى التى اعترته بمصر ويكاد يذكرها كلها على أنها من الجديد المبتكر . والتى يقول فيها :

وزائرتى كأن بها حياءً ... فليس تزور إلا فى الظلام

بذلت لها المطارف والحشايا ... فعافتها .. وباتت فى عظامى

يضيق الجلد عن نفسى وعنها ... فتوسعه بأنواع السقام

وهذه القصيدة - كما يقول الجرجاني - كلها مختارة ، ولا يعلم أحد في معناها مثلها ، والأبيات التي وصف فيها الحمى اخترع أكثر معانيها ، فجاءت مطبوعة مصنوعة (٨) .

أما الدكتور طه حسين فيقول عنها أنها من أرق الشعر العربي وأعذبه وأرقاه وأشده استثارة للحزن وتحريقاً للقلب الحساسة الشاعرة (٩) .

وهكذا جاءت كافوريات أبي الطيب - أو شعره المصري - مرتكزة على محورين لا ثالث لهما (١٠):

أولهما : قصائد ذاتية تعنى أول ما تعنى بالتعبير عن عواطف الشاعر الخاصة وآماله وآلامه ورجائه ويأسه من ناحية ، وحنينه وشوقه إلى سيف الدولة وعتابه وندمه على مفارقته من ناحية أخرى .

ثانياً : مديح ملغوم يتوسل به الشاعر إلى حاجته لدى كافور وإن كانت نفسه لا تطاوعه عليه فيملأه بأنفاس الهجاء والإشارات الخفية التي لا تلبث أن تفسرها لنا قصائد المديح الأخرى ، أو تلك القصائد التي أخلصها للهجاء ليتسنى لنا أن نفهم مراميه فيها على وجهها الصحيح بمعونة هذه المفاتيح الضرورية لفهم المدح الهجائي .

فعندما يقول هاجياً كافور:

نامت نواطير مصر عن ثعالبها ... فقد بشمن وما تفنى العناقيد

العبـد لـيس لعبـد صـالح بـأخ ⠀⠀⠀⠀ لـو أنـه فـي ثيـاب الحـر مولـود

لا تشترى العبد إلا والعصا معه ⠀⠀⠀⠀ إن العبيـــد لأنجـــاس مناكيـــد

نقول إننا عندما نستمع إلى الشاعر فى هذه الأبيات سواء كان على حق فى هجائه أو متجنياً ، فإننا نتخيل أن أجيالاً من المصريين قد تغنت بهذه الأبيات المحكمة النسج ، القوية فى معناها ومؤداها ، خاصة إذا أدركنا أن الشخصية المصرية كانت ساخطة على حاكمها غير مجاهرة فى خصومتها (١١) .

ومع أننا لا يمكن أن نَعُدَّ المتنبى شاعراً مصرياً ، لكنه وبوعى الفنان المقتدر أحس بالروح المصرية ، وعرف شيئاً من مميزات شخصيتها .وما نظن المتنبى كتب أبياته فى كافور إرضاءً لنزعة السخط فحسب ، وإنما غنى للشخصية المصرية غناء الفنان الذى يعرف ما يطرب جمهوره ليحقق الإيذاء وليمجد ذاته بذيوع شهرته

وهنا يظهر بوضوح أثر مصر فى شعر أبى الطيب ...

فإن كان قد غفل عن كل مظاهر الحياة فيها ، فإن مصر لم تكن لتغفل عن التأثير فيه على وجه من الوجوه . ففيها انتهى طموحه ، وفيها شعر بأنه خدع عن نفسه رغم ظنه بأنه كان يخدع كافوراً . ومن هنا نستطيع أن ندرك عمق إحساسه بخيبة الأمل الإخفاق الذى بلغ حد الإحباط . فهو لم يفقد ما أمله فى كافور فحسب بل إنه شعر بفقدان القدرة على الحكم على الناس والأشياء عندما اكتشف – فى نهاية الأمر – أنه هو المخدوع . هنا فاضت نفسه بالمرارة والأسى ، خاصة بعد أن وجد نفسه محاصراً مراقباً معزولاً ممنوعاً من الرحيل فازداد انكفاؤه على ذاته الفنانى

أله وإخفاقه ، ويندب حظه وزمانه ، ثم يتعدى ذلك كله ويتجاوزه ليشمل الحياة وما وراءها متأملاً في طبعها وأحداثها ، ناشراً في تأملاته روح الحزن والقنوط

وسواء أردنا أو لم نرد فإن لمصر فضلين على المتنبي لا يستطيع هو ولا نستطيع نحن أن ننكرهما (١٢):

١. أنها رققت غناءه وعلمته الحزن الطويل العميق الذي يكاد يرقى إلى الفلسفة .

٢. أنها أنطقته بأشد شعره حزناً ، وأبلغه من النفس أثراً في ميميته التي يذكر فيها مرضه ، وفي نونيته لتي يشكو فيها الزمان :

صحب الناس قبلنا ذا الزمانا … وعناهم من شأنه ما عنانا

وتولوا بغصة كلهم منه … وإن سر بعضهم أحيانا

إلى أن يقول :

كل ما لم يكن من الصعب في الأنفس فيها إذ هو كانا

والقتامة في القصيدة واضحة ، والتشاؤم بين ، والمرارة غير خافية . وذلك كله مغلف بحكمة بالغة هي بالطبع إضافة إلى ثقافته الحياتية ، ونعني بها تجربته في مصر .

فهو لم يعرف الحياة الهادئة التي تملؤها الهموم الملحة كما عرفها في مصر كان خليقاً أن يعرفها في السجن عندما ادعى النبوة ولكنه كان شاباً قليل التجربة وعند سيف الدولة كان مشغولاً بالقصر والحرب والمكائد وجمع المال . أما في مصر

وفى ظل كافور ، فقد أتيح له السكون والهدوء . فلم يعرض له احد بمكيدة ولا حسد ولم يضيق عليه فى حياته المادية ، و إنما وضع على نار هادئة من الوعد والإخلاف فنضجت نفسه نضجاً بطيئاً ولكنه نضج صحيح . وتعلم كيف يطيل التفكير دون أن تشغله الثورة عن التعمق والاستقصاء .

ولعل أجمل ما قاله المتنبى فى مصر هو " الغناء" [١٣] ، الذى صور فيه حزنه وألمه واغترابه ، وهذه البطالة التى فرضت عليه .

كان طائراً تعوَّد الهواء الطلق والفضاء العريض ، فإذا هو سجين فى سجن غريب بلا قضبان ولا فكاك . لقد فقد كل أسلحته فى معركة ظنها – فى البداية سهلة لكن الدوائر دارت وسقط عاجزاً فى قبضتها ، ومن ثم فلم يكن أمامه سوى الأنين الجريح المكلوم .

ويزعم أبو الطيب المتنبى أنه أعفى طبعه واغتنم الراحة منذ فارق آل حمدان فهل حقاً هبط مستواه الفنى بمصر عن الشام ؟؟؟.

الواقع أن المتنبى لم يعف طبعه ولم يغتنم الراحة كما زعم ، وإنما عاش حياة جديدة لم يحياها من قبل ،استجاب لها فنه فبدت فيه سمات لم يعرفها شعره . إذ لم تعد دواعى القول تعجله إلى الارتجال أو ما يشبهه لأن صلته بكافور لم تكن كصلته بسيف الدولة .

كما أن مصر شغلت أبا الطيب عن أى شاغل آخر ، وهيأت لنفسه الانفعال الصادق والحزن الحقيقى ، فإن تغيرت دواعى القول فى كل من الإقليمين الشامى

والمصرى ، فقد كانت دواعيه بمصر عميقة الغور ، فلا بدع أن أنتج فيها من القصائد ما يعد من أروع الشعر العربى جميعه [١٤] .

ولعل قصيدته الميمية فى وصف الحمى والتى سبقت الإشارة إليها خير مثال على ما نقول إنها لم تكلف الشاعر من الجهد أو العناء ما تعود أن يتكلفه فى غيرها من قصائده ، وإنما فاضت بها نفسه ، وانطلق بها لسانه ، وجرى بها قلمه من غير اعتساف أو تكلف .

ولنقرأ معاً هذه الأبيات :

ولما صار ود الناس خبا — جزيت على ابتسام بابتسام
وصرت أشك فيمن أصطفيه — لعلمى أنه بعض الأنام
يحب العاقلون على التصافى — وحب الجاهلين على الوسام
وآنف من أخى لأبى وأمى — إذا لم أجده من الكرام

إن هذه القصيدة وغيرها توضح أن أثر مصر على أبى الطيب لم يقتصر على موضوعاته وأغراضه فحسب ، بل تعداه إلى الارتقاء بأسلوب صياغته وتراكيبه حتى بلغ أقصى درجات نضجه وروعته .

فشعره الذى قاله بمصر ، أو الذى ألهمته إياه مصر ، مختار كله برىء من السخف واللغو أو كاد [١٥] .وإن كان شعره فى "الكافوريات" أضعف من شعره فى "السيفيات" ، إلا أن شعر الكافوريات لم يخل من صفات أخرى وفرتها مصر لشعره . فللشعر صفات أخرى غير القوة كالجمال والوضوح والبساطة ، حيث تخلص

المتنبى من الوعورة والغرابة والتكلف والتصنع ، كما ابتعد عن الحوشية ، ومال إلى السلاسة والعذوبة (١٦) .

إن الروح المصرية لتبسط ظلالها على "مصرياته" بشكل لا تخطئه الآذن ولا يغفله الحس . فالحياة الزراعية الرتيبة التى لا تكلف المصريين عنتاً ولا مشقة واعتدال الطقس ، وصفاء السماء والماء ، كل ذلك انعكس على شعر أبى الطيب فبرئت أساليبه من الاستكراه والتقعر.كما لم يكن ليغفل ذكاءه ويمضى فى مبالغاته التى لم تكن لتروج بين المثقفين والمتلقين لشعره من المصريين (١٧) .

وفى شعره المصرى رفرفت روح الحزن المصرية بجناحيها ...

فالحزن سمة من سمات الروح المصرية منذ كتاب الموتى وحتى اليوم . ولا تزال مصر البلد الوحيد فى العالم الذى يقضى أهله أعيادهم فى رفقة الموتى

ونلمح هذا التأثير جلياً وواضحاً فى رثائه وغنائه وعتابه ومقدماته الذاتية كما نلمح أيضاً عادة مصرية صميمة عندما يخاطب الناعى الميت طالباً أن يرد عليه كما فى قوله فى رثاء "فاتك" :

برِّد حشاى إن استطعت بلفظة ... فلقد تضر إذا تشاء وتنفع

وفى المقابل ، نرى روح المرح والفكاهة وروح الدعابة تسيطر على جانب كبير من هجائه . وهل هناك ما هو أكثر بعثاً على الضحك من هذه الصورة الفكهة التى صور فيها كافوراً عقب أول لقاء بينهما :

أمَيْناً وإخلافاً وغدراً وخِسَّة ... وجنبا أشخصاً لحت لى أم مخازيا ؟

لقد وفق المتنبى فى أن يرسم لكافور صوراً شديدة السخرية، تبعث على الضحك، استغل فيها شكله ولونه وغلظ شفتيه وبطنته. ولم يترك فيه زاوية إلا وعرضها عرضاً كاريكاتورياً كانت مادة للدعابة والفكاهة.

ولعل أكثر ما استفاده الشاعر من مصر هو كثرة من روى عليه شعره من المصريين ومجاوريهم من المغاربة والأندلسيين والصقليين، والذى كان فاتحة لانتشار شعره فى كل هذه البلاد، وما تبع ذلك - ولقرون طويلة بعد مقتله - من كثرة الدراسات والشروح عن شعره (١٨).

وقد حفظ لنا التاريخ أسماء بعض الأعلام المصريين الذين صحبوا المتنبى ورووا عنه وتصدوا للكلام فى أدبه، وما منهم إلا شاعر أديب أو ناقد، من أمثال عبد الله بن أبى الجوع، ومحمد بن موسى بن عبد العزيز المعروف بابن جنى والملقب بسيبويه المصرى وصاحب المجادلات الشهيرة مع الشاعر، وأبى القاسم بن أبى الغفير الأنصارى، وأبى محمد الحسين بن على المعروف بابن وكيع والذى ألف رسالة سماها "المنصف للسارق والمسروق من المتنبى" (١٩)

* * *

وهكذا تركت مصر بصمتها على أبى الطيب وشعره ...

فصقلت موهبته الناضجة ، وألجأته إلى نفسه حيث استخرج منها الشعر الرائع فى الحكمة والغناء الداتى . وكفل له هدوؤها أن يعرف فى شعره صفات أخرى غير القوة كالجمال والرقة والسهولة والبساطة والاستواء . ودفعت بنفسه الجموح إلى الكمون والاختفاء فاستنبطها واكتشف فيها قدرة غير محدودة على الفكاهة والسخرية والتعريض القاتل والهجاء المقنع بالمدح ، فأمتعنا بفنه الجميل فى " مصرياته" التى تُعَدُّ من أروع شعره ، والتى مثلت قمة نضجة الفنى الذى لم يتجاوزه بعد ذلك .

الهوامش

١. د.حسين مؤنس : مصر ورسالتها ، مطبوعات دار الشعب ، ١٩٧٦

٢. جمال الدين أبو المحاسن الأتابكي : النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، جـ٤ – ط دار الكتب المصرية .

٣. الحياة الأدبية والفكرية في مصر.

٤. د. شوقي ضيف: فصول في الشعر ونقده ، دار المعارف، مصر ١٩٧١

٥. د. النعمان القاضي :كافوريات أبي الطيب ، مركز كتب الشرق الأوسط ، مصر ١٩٧٥ .

٦. السابق ، باختصار.

٧. د. درويش الجندي : الرمزية في الأدب العربي ، مجلة المورد ،العراق العدد الثالث ، المجلد السادس ١٩٧٧.

٨. الجرجاني: الوساطة بين المتنبي وخصومه ، ط صيداء ١٩١٣.

٩. د. طه حسين : مع المتنبي ، دار المعارف ، مصر ١٩٧٦ .

١٠. كافوريات أبي الطيب ، مرجع سابق .

١١. د. أحمد السيد محمد : الشخصية المصرية في الأدبين الفاطمي والأيوبي ، دار المعارف ، مصر ١٩٧٦.

١٢. السابق .

١٣. الشعر الغنائى (Lyric) هو قصائد صغار تصدر فى مضمونها عن تعامل الشاعر /الذات مع البيئة والحياة والكون ، مع التركيز الشديد فى اللغة واختيار الكلمات الموحية ، والاستخدام الدلالى للمفردات

١٤. أحمد الشايب: أبو الطيب المتنبى .. حياته وشعره ، مجموعة مقالات بيروت ١٩٨٢.

١٥. مع المتنبى ، مرجع سابق .

١٦. كافوريات أبى الطيب ، مرجع سابق .

١٧. السابق .

١٨. د. محسن غياض : مجلة المورد ، مرجع سابق .

١٩. الثعالبى : يتيمة الدهر.

الفصل السابع :

المتنبي .. والسرقات الأدبية

اهتم النقاد أيما اهتمام بمعرفة الجديد والمسروق لدى كل شاعر. ذلك لأن دراسة هذين الجانبين ستضع أيدينا على مدى التطور الذى أصاب الحياة فى جميع مرافقها المادية والمعنوية ، لأن كل تطور يصيب أية زاوية من زوايا الحياة سينعكس أثره بالضرورة على الأدب وعلى ألسنة الأدباء . كما سيوقفنا على مدى تفاعل هؤلاء الأدباء مع البيئة والظروف المتغيرة التى يعيشونها. ثم إن معرفة الجديد والمسروق لدى كل أديب سيكشف لنا مقدار ثقافته ، ومدى تمثله للتيارات الثقافية التى ظهرت واستفاضت فى زمانه ، وموقفه من هذه التيارات المختلفة وقدرته على التأثير فيها أو التأثر بها ، مما يحدد لنا شخصيته الأدبية ، ويوضح لنا مقدار نضجه الفنى واحترامه لنفسه وفنه . كما أنها تفصح – فى الوقت ذاته – عن مشرب الأديب واتجاهه النفسى وتكوينه الأدبى وقوامه الثقافى ، وذلك حينما أمامنا شخصية الأديب الذى يستوحيه غالباً ويصاحبه فى تياره ويسير معه فى فلكه .

وبمعرفة الجديد والمسروق لدى كل أديب ، سنستطيع أن نعرف المنزلة الأدبية التى يتبوأها فى ركب الأدباء . ولن نستطيع تحديد هذه المنزلة تحديداً صارماً ما لم نعرف الجديد الذى أضافه إلى تراثنا الفنى ، والقديم الذى أضاف إليه شيئاً يبرز به شخصيته ويثبت وجوده ، والمسروق الذى سطا عليه وخاتلنا دون أن يكون له فيه فضل أو أثر

وهى أيضاً - أى تلك المعرفة لون من الجهارة نؤذن السارق بالفضيحة والهوان فينصرف عنها إلى التجديد والابتكار إذا كان من ذوى الاستعداد الفنى وبذلك تسير القافلة إلى الأمام بدلاً من لفها حول نفسها ، وعكوفها - جامدة - على آثار أسلافها .

وليس معنى ذلك أننا نحرم على الأدباء الانتفاع بآثار السابقين ...لا ، بل نحن نوجب الإطلاع على آثارهم ، والإحاطة البصيرة بنتاجهم . كما نقر الأخذ عنهم والانتفاع بهم استجابة لقانون التطور العام ، ولكن فى حدود القواعد التى أقرها السابقون والتى نراها قواعد جيدة نرضى عنها ونؤمن بها عن ثقة وبصر ... ،وهى

١. أن السرقة لا تكون فى المعانى العامة ، ولا فيما شاعت بين الناس حتى غدت كالفطرة العامة [١] .
٢. أن السرقة لا تكون إلا فى المعانى الخاصة ذات الارتباط الوثيق بمقام معين أو تجربة ذاتية خاصة [٢] .
٣. إن مبتكر الفن الأدبى أو الصورة الخيالية أو العبارة الجملية مفضل على سائر الآخذين عنه [٣].
٤. إن من أخذ معنى من غيره فزاد فيه بتوليد شيء جديد منه لا يُعَدُّ سارقاً [٤] .
٥. إن من أخذ معنى فعكسه إلى ضده لايُعَدُّ سارقاً [٥]

٦. إن من آخذ المعنى واللفظ برمتهما ، أو أخذ المعنى فشوه جماله أو أساء معرضه ، لزمه عيب السرقة ومذمة القصور [٦] .

تلك هي الأسس الأصلية والصائبة التي تلائم منطق العدل والإنصاف في جانبها النظري . أما في المجال لتطبيقي فالأمر مختلف .

فالحاتمي مثلاً تعقب أبا الطيب المتنبي راصداً ظالماً راداً كل بيت مما كتب إلى مصدر قريب أو بعيد ، حتى انتهى في الحكم على كل نتاجه بأنه مسروق ....و

ما أعرف لك إحسانا في جميع ما ذكرته . إنما أنت سارق متتبع ، وآخذ مقصر ، وفيما تقدم من هذه المعاني التي ابتكرها أصحابها مندوحة عن التشاغل بقولك [٧] .

وينقل الجرجاني في "الوساطة" قول آخر عن المتنبي :

ما يسلم له بيت ، ولا يخلص من معانيه معنى ، وما هو إلا ليث مغير وسارق مختلس

ويقول العبيدي في "الإبانة" :

ولقد تأملت أشعاره كلها – يعني المتنبي – فوجدت الأبيات التي يفخر بها أصحابه ، تُعَدُّ بها آدابه من أشعار المتقدمين منسوخة ، ومعانيها من معانيهم المخترعة مسلوخة .

وهكذا عكف النقاد قديماً على دراسة سرقات المتنبي بشكل يفوق عكوفهم على أي جانب آخر من جوانب إبداعه ومن الكتب التي تم تأليفها في هذا الأمر

١- الإبانة عن سرقات المتنبي لأبي سعيد محمد بن أحمد العبيدي المتوفى سنة ٤٣٣هـ.

٢- الكشف عن مساوىء شعر المتنبي لأبي القاسم إسماعيل بن عباد الشهير بالصاحب والمتوفى سنة ٤٥٠هـ.

٣- سرقات المتنبي ومشكل معانيه لابن بسام النحوي ، وهو على الراجح صاحب " الذخيرة" - والمتوفى سنة ٤٥٠هـ.

٤- الرسالة الموضحة للحاتمي المتوفى سنة ٣٨٨هـ.

٥- الفتح على أبي الفتح لمحمد بن فورجة المتوفى في أواسط القرن الخامس الهجري ، وله أيضاً التجني على ابن جني في شرحه لديوان المتنبي

٦- الوساطة لعبد العزيز الجرجاني.

٧- يتيمة الدهر للثعالبي.

وإن كان الأخيران قد تكلما كثيراً عن إحسان أبي الطيب المتنبي في شعره.

والقارىء لهذه الكتب وغيرها يجد أن مؤلفيها ردوا كثيراً من أشعار المتنبي ونسبوها إلى شاعر آخر مشهور أو مغمور إلى حد أنه أصبح من الصعب تحديد الأشخاص الذين اتخذهم أبو الطيب أساتذة يتلقى عنهم الوحي ويأخذ منهم المعاني والأفكار.

وإذا كان ابن ابن الرومي وأبو تمام والبحتري في مقدمة من ذكروا أنه أخذ عنهم واستقى أفكاره منهم فإن هناك من الأسماء التي أقر هؤلاء النقاد أنه أغار عليها وانتفع بها ما لا عهد لنا به من قبل لا إلف لنا به في مجال التاريخ الأدبي

الذى لا يستطيع استقراء كل شاعر واستقصاء بصورة تنفى شبهة نسيان البعض أو عدم العلم به .

وقد ذكر الجرجانى فى "الوساطة" عدداً من الشعراء الذين قيل إن المتنبى أخذ عنهم وعددهم يزيد على المئة منهم امرؤ القيس ،وسالم بن وابصة ، والفرزدق وجرير ، وابن الرقيات ، وأبو دلف ، وابن الخياط وغيرهم .

وهذا افتئات على الشاعر ولا شك . فمن المستبعد أن يغير المتنبى على معانى أولئك السابقين عليه وفيهم الخامل الذى أسقطه التاريخ والنابه الذى وجد له مكاناً فى موكب الخالدين . ذلك فضلاً عن أن تشابه الفكرة لا يعنى بالضرورة أن الشاعر قد أخذها من شاعر آخر سابق عليه . فالمعانى الإنسانية العامة مثل :الحب والوفاء ،والبطولة ، والفتوة ، وحب المال ، والمجد ، والصراع من أجل لتفوق والاستعلاء . والتغنى بالقوة والسيف . كل هذه المعانى وغيرها التى احتفى بها أبو الطيب ملك مشترك للإنسانية جمعاء . وما زال الشعراء منذ العصر الجاهلى وحتى عصرنا الحديث يتغنون بها لكنهم يختلفون فى طريقة التعبير .

ومعنى ذلك أن مبحث السرقات الأدبية بالنسبة لأبى الطيب لا يحدد لنا الشخص أو الأشخاص الذين أعجب بهم واتخذهم أمثلة له يستقى منهم الأفكار ويأخذ عنهم المعانى ، بقدر ما يدلنا على أننا أمام رجل موسوعى الثقافة كثير القراءة ، مستوعب للتراث الأدبى بأعلامه وخامليه ، يتلقف الفائدة أنى كان مصدرها ، ويتمثل ما لقيه ووقع عليه ما دام مسايراً لوجهته مصوراً لفكرته (٨) .

وإذا كان العميدى قد أجهد نفسه ليثبت انتفاع المتنبى بالطائيين وبابن الرومى [٩] ، فإن الشاعر نفسه يعترف بذلك ولا يدفعه عندما يقول :

أويجُوزُ للأديب ألاَّ يعرف شعر أبى تمام وهو أستاذ كل من قال الشعر بعده [١٠]

كما أننا نعلم أنه عندما قتل فى طريق الأهواز ، وجد معه ديوانا أبى تمام والبحترى بخطه وعلى حواشى الأوراق علامة كل بيت أخذ معناه .

ويدعو القاضى الجرجانى إلى التأنى والتحرز والتأكد قبل اتهام شاعر بأنه أغار على معنى شاعر سابق أو معاصر، فيقول :

وهذا باب يحتاج إلى إنعام الفكر ، وشدة البحث ، وحسن النظر ، والتحرز من الإقدام قبل التبين ، والحكم إلا بعد ثقة ، وقد يغمض حتى يخفى ، وقد يذهب منه الواضح الجلى على من لم يكن مرتاضاً بالصناعة ، متدرباً بالنقد وقد تحمَّل العصبية فيه العالم على دفع العيان ، وجحد المشاهدة ، فلا يزال على التعرض للفضيحة والاشتهار بالجور والتحامل [١١]

إلا أن هذا الميزان المستقيم ، وتلك النزاهة فى الحكم لم تكن ديدن كل الذين تعرضوا لشعر أبى الطيب واتهموه بالسرقة .

فالصاحب بن عباد مثلاً – وما أدراك بعنف الخصومة بينه وبين المتنبى ينصرف عن تتبع سرقاته ولماذا ؟ .. لأن : السرقات ليست من العيوب الخاصة بالمتنبى ، وليست بالجناية التى تقتضى منه أن يجلس له كل مرصد ، ولكنها عيب قديم درج عليه الشعراء [١٢] .

ونحن هنا أمام منهج نقدى غريب . فما ينسحب على الشعراء ، كل الشعراء لابد أن ينسحب بالضرورة على أبى الطيب . وما دام الشعراء يغيرون على أفكار ومعانى الآخرين فلم يُسْتَثْنَى المتنبى ؟ أليس واحداً منهم ؟؟. وهكذا تثبت التهمة دون بحث أو تدقيق أو بذل أدنى جهد أو عناء ولم التحرز قبل إصدار الحكم الجائز ما دام سوء القصد مبيت ؟؟؟ .

ويقول الأستاذ عباس حسن : إن المتنبى كان من رواة الشعر ، ومن أكبر حفاظ الدواوين . ومثل هذا قد ينطق فى شعره كلام غيره دون تدبير ولا ترتيب سابق . وقد يجرى على لسانه ما ليس له دون أن يشعر. ومكانته الأدبية وثقته بنفسه بل وغروره وكبرياؤه وكثرة حسَّاده وأعدائه الذين يتربصون به الدوائر ، كل أولئك يمنعه أن يسرق كلام غيره وأن ينتهب ما ليس له (١٣) .

وهذا رأى موضوعى على نحو ما ... لا ينفى توارد الخواطر ، أو خروج المخزون فى اللاوعى دون قصد ، لكنه ينفى سبق الإصرار أو سوء النية . وهو يتفق – إلى حد بعيد – مع ما قرره المتنبى عن نفسه عندما سُئل عن اتفاق الخواطر فقال:

الشعر ميدان والشعراء فرسان ، فربما اتفق توارد الخواطر كما يقع الحافر على الحافر.

لكن تلك الموضوعية تفرغ من محتواها عندما يستطرد الأستاذ عباس حسن ناسياً ما سبق أن قرره منذ لحظات ، فيقول :

على أنى – بالرغم من ذلك – وقعت على أبيات كثيرة لا أستطيع الدفاع عنها ولا إخراجها من السرقات (١٤) .

وبعد أن يسوق تلك الأمثلة يقرر مطمئناً :

إن المتنبى مختلس زائف العظمة ، لا صلة بين حقيقة نفسه وظاهرة غروره وادعائه . ومن استباح أن يسرق أبا تمام والبحترى استباح أن يسرق غيرهما ، وأن يعرض تلك النفائس المسروقة مموهة مصقولة على أنها ملك يمينه وهى تبرأ من فعلته وجرأته .

ويفرد الدكتور أحمد نصيف الجانى [١٥] بحثاً كاملاً عن أثر شعر " العكوك " [١٦] فى شعر المتنبى ، يبدأه بقوله :

ما أكثر ما تبدو الأشياء الغريبة طريفة . وقد يظهر الرجل عظيماً ووراء عظمته آخرون . وقد لا يكون الإنسان عظيماً فى فنه وهو مدين بجزء من عظمته الفنية للآخرين . وربما تبدو هذه القضية غريبة وهذا شأن المتنبى . فجزء من عظمته الشعرية يرجع إلى شعراء كانوا فى الظلال ، ولم تسمح لهم عوامل عديدة بالظهور أمام الأضواء ، لأنهم لم يترددوا على أبواب الخلفاء وقصورهم المفعمة بالأضواء والمظاهر الخلابة . وما أكثر ما تكون المظاهر الخلاَّبة زائفة وتكون الحقائق الأصلية فى الأعماق بعيداً عن الأضواء .

ثم يسوق الدكتور الجنابى ستة عشرة صورة من أشعار العكوك اقتبسها أبو الطيب . ويخلص سيادته إلى تفوق شعر " العكوك" خاصة فى رسم الصورة التى كانت أقوىَ من صور المتنبى تأثيراً وأكثرها إيحاءً .

أما صاحب "الصبح المنبى" [١٧]، فيفرد عشرات الصفحات للأبيات التي سرق المتنبى صوراً أو ألفاظاً أو معانى منها ، وهى لشعراء سابقين عليه . كما يورد فى المقابل ما أخذه الصاحب وأبو إسحق الصابى والخوارزمى من أشعار أبى الطيب وصاغوه نثراً فى بعض رسائلهم ، كما يلحق ذلك بما أخذه بعض الشعراء منه .

ويحاول المستشرق كورفروا دموبين [١٨] حيال هذا السيل من الاتهامات أن يدافع :

"إن إقامة الحجة على أن كاتباً مشهوراً محروم من الأصالة ، وأنه سرق أفكاره وصوره وأوزانه من قدماء الكتاب المعروفين أقل منه ، صفق لها بعض النقاد وزمروا بفظاظة " .

ويخفف الجرجانى من وطأة الهجوم ويلتمس العذر [١٩] :

" حدثنى عمن تعظم من أوائل الشعراء أو من تفتح به طبقات المحدثين ، هل خلص لك شعر أحدهم من شائبة وصفا من كدر ومعابة ، وأبو الطيب واحد فى الجملة ، فكيف خلص بالظلم من بينها ؟؟.

ويجدر التنويه هنا إلى أن لفظ " السرقة" لا يروق لبعض الأدباء والنقاد ويستعملون مكانه ما يؤدى معناه دون أن يثير فى النفس ما يثيره لفظ "السرقة " مثل : الأخذ ، والاتباع ، والاقتباس .. وغيرها . لكن الحقيقة أن استعمال لفظ "السرقة" مع تحديده التحديد العلمى الكافى كما فعل أسلافنا من النقاد أحسن فى رأيى من أى لفظ آخر ، لأنه سيفضح كل من يسطو على نتاج الناس ممن يصرف

الأدباء إلى الابتكار لا التقليد ، وسيبرىء التحديد العلمى كثيراً من هذه التهمة التى يتهمون بها جزافاً تشفياً وانتقاماً، أو جهلاً واضطراباً [٢٠] .

وإذا ما عدنا إلى سرقات أبى الطيب المتنبى ، نقول إننا من جانبنا لا نستطيع أن نكرر بعض ما قيل ، لكننا نأبى أن نسلم بكل ما قيل وما أثير حول الشاعر من دراسات فى مجال السرقات الأدبية . فأصحابها لم يلتزموا جانب الإنصاف والدقة والحيدة . ذلك لأن الحسد والوقيعة استجابة للخصوم أو إرضاء للحاكمين والحرص على إذلال ذلك الشاعر المترفع المتعالى ، كل ذلك فتح باب اتهامه بالسرقة على مصراعيه ؛ لأنه أقرب طريق للهدم . وأسهل دعوة يدعيها الخصم ما دامت لن تكلفه كثيراً من عناء المناقشة والدرس والتحليل والتعليل . ذلك فضلاً عن إغراء السابقين لغيرهم من الباحثين بالسير على آثارهم حتى خلفوا لنا هذا القدرمن الدراسات .

ولا يعنى هذا أن أبا الطيب المتنبى برىء تماماً من تهمة السطو على إبداع غيره . فالأخذ عن السابقين سنة من سنن الحياة . وهذا ما يجعلنا نتفق مع ما أورده صاحب "المتنبى بين ناقديه" من أن الشاعر كان فى أغلب الأحايين : يجيد الإجادة المشكورة، ويزيد الزيادة التى تشفع له وتعفيه من اللوم وتبرئه من العيب [٢١]

الهوامش

1. عبد العزيز الجرجانى : الوساطة بين المتنبى وخصومه .
2. ابن الأثير: المثل السائر.
3. أحمد الشايب :أصول النقد الأدبى .
4. أبو هلال العسكرى : الصناعتين .
5. ابن الأثير : المثل السائر.
6. السابق .
7. ياقوت الحموى :معجم الأدباء .
8. د. محمد عبد الرحمن شعيب: المتنبى بين ناقديه ، دار المعارف بمصر ١٩٦٤.
9. الإبانة عن سرقات المتنبى .
10. يوسف البديعى: الصبح المنبى عن حيثية المتنبى ، دار المعارف بمصر ١٩٦٣.
11. الوساطة ، مرجع سابق .
12. الكشف عن مساوىء المتنبى .
13. عباس حسن : المتنبى وشوقى ، دار المعارف بمصر ١٩٦٤.
14. السابق .

١٥. مقال بمجلة المورد ، العراق ، عدد خاص عن المتنبى ، العدد الثالث المجلد الثالث ١٩٧٧ .

١٦. هو أبو الحسن على بن جبلة بن عبد الله المعروف بالعكوك (١٦٠ - ٢١٣هـ).

١٧. يوسف البديعى ، مرجع سابق .

١٨. مجلة المورد ، مرجع سابق .

١٩. الوساطة .

٢٠. المتنبى بين ناقديه ، مرجع سابق .

٢١. د. محمد عبد الرحمن شعيب ، مرجع سابق .

الفصل الثامن :

العاطفة الدينية والقرمطية
عند أبي الطيب المتنبي

بداءة ...

لا نستطيع أن ننكر أن أكثر شعراء العرب لم يعنوا بإثبات خواطرهم الدينية إلافى الندرة ، بحيث أصبح من المتعذر تحديد موقفهم من المعتقد الدينى الذى أخذوا حياله موقفاً محايداً إلا بالرجوع إلى سيرتهم الذاتية .

لكن الذى يسترعى النظر فى شعر أبى الطيب المتنبى - ومن خلال ديوانه أن فيه إشارات كثيرة تختلف وضوحاً وخفاءً تنم عن وهن العقيدة ، وضعف الإيمان وغلبة الآداب الجاهلية فى نفسه على الآداب الإسلامية . ففى ريق شبابه واكتمال قوته يقول :

أى محـل أرتقـى ... أى عظـيم أتقـى

وكـل مـا قـد خلـق اللـ ... ـه ومـا لم يخلـق

محتقـر فـى همتـى ... كشـعرة فـى مفرقـى

ولا جدال فى أن عصر المتنبى كان عصر شك واضطراب اشتعل فيه النزاع بين الطوائف والمذاهب وضعفت فيه العقيدة الدينية ، وساور الشك النفوس وطغى على العقائد . وإلا أن ضعف العقيدة عند أبى الطيب يرجع فى المقام الأول إلى مزاجه وتكوينه الشخصى ، إذ كان - بطبيعته - رجلاً واقعياً الأول إلى مزاجه وتكوينهالشخصى ، إذا كان - بطبيعته- رجلا واقعياً مسرفاً فى واقعيته ، تسرى فيه ذات متورمة بتضخم (الأنا) الأمر الذى يغنيه - على حد وهمه - عن الاستناد

إلى أى " قوة " خارجية أخرى ، بعكس الشخصية السوية فيها روح الدين ، والتى توقن بقوة علوية تتقى بها عصف الحياة .

لذا نراه (١) قد زوى وجهه عن مباحث ما وراء الطبيعة وأبقاها هناك لا يسمح لها بالبروز إلى واعيته والتحرك لإقلاق باله إلا فى الأوقات القليلة التى يخفى فيها طمعه وتفتر آماله ، ثم تعود إلى زواية سجنها السحيق حيث لا يزعجه اشتجارها ولا يشغله عن دنياه ضجيجها وأسرارها .

لقد غلبت عليه عاطفتان ملكتا عقله وقلبه وجهده : حب المال وحب المجد ولم تكن هناك عاطفة ثالثة تعزيه عنهما حين أحسن أنهما أفلتا من يده ، فأخذ يسب الدهر ويلعن الأقدار .

لقد شغل أبو الطيب عن أمور دينه بأمور دنياه ، يؤكد ذلك ديوانه والومضات التى نلمحها هنا وهناك تخفت حيناً وتعلوا حينا حتى تصل إلى حد الصراخ معلنة أن العقيدة الدينية هى آخر ما كان يفكر فيه هذا الشاعر الذى كانت ذاته محور ذاته .

وانظر قوله فى سيف الدولة :

إن كان مثلك كان أو هو كائن فبرئت حين إذا من الإسلام

لقد جعل من سيف الدولة أفضل الخلق كافة .. حتى الأنبياء .

وانظر قوله فى محمد الأوسي:- لم يخلق الرحمن مثل محمد ... أحدًا ، وظنى أنه لا يخلق المبالغة المجوجة نفسها ، وإن اختلفت الكلمات .

وانظر قوله فى بدر الدين بن عمار:

لـو كـان علمـك بالإلـه مقسـماً فـى النـاس مـا بعـث الإلـه رسـولا

أو كـان لفظـك فيهمـو مـا أنـــ ــــزل القـرآن والتـوراة والإنجيـل

تنويع آخر على اللحن الساقط نفسه ، وترديد للمبالغة نفسها والجرأة والاستهتار. وهذا الإفراط لم يعجب شرّاح ديوانه حتى أن العكبرى يقول معقباً على البيت الأول [٢]:"وقد أخطأ أبو الطيب فى هذا الإفراط وتجاوز الحد . ويقول عن البيت الثانى : وهذه مبالغة تدخل النار نعوذ بالله من هذا الإفراط وهذا الغلو "

وتتواصل المأساة فى مدحه بدر الدين بن عمار:

يابـدر إنـك والحـديث شـجون مـــن لم يكـــن لمثالـــه تكـــوين

تعظمـت حتـى لـو تكـون أمانـة مـا كـان مؤتمنـاً بهـا جـبرين

يقول الواحدى [٣]:" هذا إفراط وتجاوز حد يدل على رقة دين وسخافة عقل بل ويدل على زندقة وكفر " .

ويقول الصاحب بن عباد معلقاً على البيت الثانى [٤] :"وقلب هذه (اللام) إلى (نون) فى جبرين أبغض من وجه المنون ، ولا أحسب جبريل عليه السلام يرضى منه بهذا المجون ، هذا على ما فى البيت من الفساد والقبح "

وتتقطر المأساة وتتصاعد إلى أن تقترب من حد الكفر الصريح فى مدحه للرجل نفسه .. بدر الدين بن عمار:

تتقاصــر الأفهـــام عـــن إدراكـــه   مثــل الــذى الأفــلاك فيــه والــدنى

ولقد رفع ممدوحه إلى مرتبة الألوهية . ولو كان لها مكانة فى نفسه لما هبط بها هذا الدرك .

وإذا كانت الأخبار قد حملت إلينا أنه كان [٥]: لا يصوم ولا يصلى ولا يقرأ القرآن الكريم ، بل وكان يشرب الخمر أحياناً إرضاءً لأمير أو كبير ، إلا أن ما تردد عن إدعائه النبوة كاف وحده للحكم عليه بسوء العقيدة وفساد اليقين .

وانظر قوله مادحاً :

يـا مـن نلـوذ مـن الزمـان بظلـه   أبـــداً ، ونطـــرد باسمـــه إبليســـا

والبيت غنى عن الشرح ، فهو التقديم الحقيقى لنفسه ولعقيدة قائله الساقطة فى هوة المنافع الدنيوية الزائلة التى كرس لها حياته .

وعلى ضوء ما تقدم وسبق طرحه ، فنحن لا نطمئن إلى ما ذكره صاحب " المتنبى وشوقى " [٦]:"ورغم أن شعره جاء خلواً من الدعوة للدين والحض عليه وعلى احترامه ، والإشادة بالأنبياء والأئمة وما يتصل بهذه النواحى الكريمة ، فمن الإنصاف القول أن شعره خلا أيضاً من التقليل من شأن الدين أو تحقيره أو إظهار الكراهية له ، بل خلا من كل ما يحض على الرذيلة ويدعو إلى الخلاعة والمجون فلست تقع فيه على لهو أو لعب أو صغار" .

وإذا لم يكن تفضيل الممدوح على رسل الرحمن ورفعه أيضاً إلى مرتبة الألوهية صغاراً فكيف يكون الصغار إذن ؟ ويبدو أن أستاذنا الفاضل لم يقرأ الديوان جيدا

ولم تلفت نظره تلك القصيدة التى ثار فيها على الإدارة الإلهية حين رأى عبدًا مثل كافور يحكم الخلق ، ويسمى هذه الإدارة .... شرًا:

قضاء من الله العلى أراده ألا ربما كانت إرادته شراً

أما الأستاذ عباس محمود العقاد فيلتمس العذر للشاعر ، ويرجع كل مغالاته إلى [٧]:

"أنه كان اضطرار لمرضاة الممدوحين والجرى على هواهم ، وما عساه يصنع فى ذلك الزمن وقد كانوا لا يرضون عن الشاعر ولا تشبع نهماتهم من المدح إلا أن يمدحهم بما لم يمدح به أحد قبلهم ، وأن يعمد إلى أقصى ما بلغه الشعراء من الغلو فيضاعفه له " .

وذلك عذر أقبح من الذنب نفسه . فالأستاذ العقاد – الذى عرف عنه التدقيق والتمحيص – يتلمس الأسباب للشاعر كى يتاجر بأشرف واطهر عقيدة لقاء بضعة أو حتى الآلاف من الدراهم – ناسياً أنه لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق بفرض أن أبا الطيب كان مضطراً إلى ذلك .

ويعترف الثعالبى – ضمناً – بفساد يقين الشاعر [٨]: " إن هذا لا يطعن فى شاعريته . فالديانة ليست عياراً على الشعراء ولا سوء الاعتقاد سبباً لتأخر الشاعر ولكن للإسلام حقه من الإجلال الذى لا يسوغ الإخلال به قولاً وفعلاً ونظماً "

ويتفق صاحب (الحكمة فى شعر المتنبى) [٩] **، مع الثعالبى فيقول :**

"ولكن المتنبى ظل الشاعر العظيم الذى أدى خدمات جليلة للعروبة لعلها تغفر له شطحات فكره وجنوح خياله الذى جعل من حكمه الدينية حلالاً يرتديها ممدوحوه ويرفلون فى ألفاظها الفخمة بينما تشير أصابع الاتهام بالزندقة والإلحاد إليه " .

وإذا ما كان للعاطفة الدينية فى نفس أبى الطيب كل هذا الضعف والوهن فهل كانت المتنبى قرمطياً ؟؟؟.

فرض هذا السؤال نفس على كثير من المؤرخين والنقاد . والغريب أن الدكتور طه حسين يجيب على السؤال بالإيجاب .. لكن دونما سند ، فيقول [١٠]:"وهناك فى البادية وفى عصره كان المذهب النظرى للقرامطة وغلاة الشيعة ، ومن هناك أيضاً عاد شيعياً مغالياً لم يلبث أن تحول قرمطياً خالصاً " .

ويشايع الدكتور : شوقى ضيف [١١] هذا الاتجاه ، ويتخذ من حياة الشاعر بالكوفة إبان الثورات والغارات القرمطية ، ومن نزعة الشاعر إلى إرخاص الحياة واستباحة الدماء ذريعة لإثبات دعواه .

ويؤكد الأستاذ لوى ماسينيون [١٢] ما ذهب إليه بعض النقاد فى قرمطية أبى الطيب ، فيقول عن بعض أبيات الشعر :

وكأنما عيسى بن مريم ذكره ... وكأن عازر شخصه المقبور

أو صادف رأس عازر سيفه ... فى يوم معركة لأعيا عيسى

يقول المستشرق الفرنسى أن هذه الأبيات تفضح مريداً قديماً ، فالمسلم العادى يجهل اسم "عاذر" ولكن القرامطة حفظوه .

ويؤيد الأستاذ أحمد أمين الاتجاه نفسه فيقول [١٣]:"وكان المتنبى متأثراً بآثارهم – أى القرامطة – وولد فى ظلهم وتحت سلطانهم ، واصطبغ بصبغتهم وتعلم علمهم" .

والقرامطة ، أو أصحاب المذهب القرمطى ، هم جماعة منشقة عن المذهب الإسماعيلى . قالوا بالتناسخ ، الأمر الذى خالفوا فيه أهل السنة والإسماعيلية على السواء . وأساس عقيدتهم [١٤] هو الاعتراف بنبوة إسماعيل بن جعفر والإقرار بحياته واستتاره وعودته ثانية إلى الأرض ليهدى الناس من جديد بعد أن يستشرى فيهم الكفر والضلال.

وقد استباحوا فى سبيل إقرار مذهبهم كل محرم وعبثوا بكل قاعدة فى المعتقد [١٥]، إذ أسقطوا من تكاليف الشريعة ما أسقطوا ، فأحلوا الخمر ، ولم يوجبوا الغسل من الجنابة ، وغيروا من هيئة الصلاة وطقوسها ، كما قالوا بشيوع الأموال والنساء .

ولم يقف القرامطة عند حد محاولة تخريب العقيدة [١٦] ، بل تجاوزوا ذلك إلى إنكار العبادات جملة وتفصيلاً والدعوة إلى الانحلال الخلقى وادعاء النبوة والألوهية لأئمتهم .

ولعل أبشع جرائمهم ما أورده ابن كثير [١٧] من أنهم : دخلوا مكة عام ٣١٧هـ بقيادة أبى الطاهر سليمان بن سعيد الجنابى وقتلوا الحجيج وردموا بجثثهم بئر

زمرم . وهدموا الكعبة . ونزعوا الحجر الأسود وحمله إلى عاصمتهم (هجر) حيث ظل لديهم بضعة وعشرين عاماً . ولم يردوه إلا فى عام ٣٣٧هـ "

ويفسر شاعرهم دستورهم المتفسخ المتردى فى قوله (١٨)

خذى الدف يا هذى والعبى ... وهزى هزاريك ثم اطربى

تولى نبى بنى هاشم ... وهذا نبى بنى يعرب

لكل نبى مضى شرعة ... وهذى شرائع هذا النبى

فقد حط عنا فروض الصلاة ... وحط الصيام . ولم يتعب

إذا الناس صلوا فلا تنهضى ... وإن صوّموا فكلى واشربى

ولا تطلبى السعى عند الصفاة ... ولا زورة القبر فى يثرب

ولا تمنعى نفسك المعرسين ... من أجنبى ومن أقرب

فكيف حللت لهذا الغريب ... وصرت محرمة للأب ؟

أليس الفراس لمن ربَّه ... وسقاه فى الزمن الأجدب

وما الخمر إلا كماء السماء ... حلال .... فقدست من مذهب

هذا هو دستورهم الضال المضلل . وتلك هى خطوط دعوتهم المنحلة القذرة .. فأين صدى ذلك التفسخ كله فى شعر أبى الطيب؟؟ وهل فى ديوانه – أو حتى سيرته – ما يشتم منه موالاته أو ميله لهذه الدعوة الساقطة . أو حتى شبهة اتفاقه معهم ؟؟.

وأيضاً .....

أين شعره الذى يمجد دعوتهم ، والتغنى بدعاتهم من أمثال عبد الله بن ميمون القداح ، وحمدان قرمط ، وابى الطاهر الجنابى مثلاً ؟؟. وبفرض أن الشاعر قد ترك ذلك تقيا وستراً ، فأين شعره الذى يشتم منه توجيه المسلمين إلى نبذ معتقداتهم الإسلامية والاستخفاف بمقدساتهم التى مرغها القرامطة فى التراب ؟

الواقع أن [١٩] " أول من أحدث هذه الخرافة – خرافة قرمطية المتنبى – فيما نعلم ، أحد الفئة المستشرقة هو الأستاذ بلاشير وقيد قوله هذا فى دائرة المعارف الإنسانية ، وقد اتبع الدكتور طه حسين بلاشير فيما قال لكنه نسب الاكتشاف لنفسه " .

ومن الغريب أن يقر [٢٠] كل من الدكتور شوقى ضيف وأحمد أمين بقرمطية أبى الطيب استناداً إلى الترابط المكانى بين الشاعر ومسرح الثورات القرمطية وهى الكوفة ، وإلى ظهور آثار المعرفة بهذه المذاهب وتلك النحل فى شعره ، مع أن هناك فرقاً كبيراً بين العلم بالعقيدة واعتناق العقيدة ذاتها ، ذلك لأن دائرة معارف الإنسان قد تتسع لكل ما يدور فى بيئته من ألوان الثقافات والمعارف ويعرفها معرفة دقيقة مستفيضة ولكنه لا يعتقد بصحة كثير منها .

ونحن إن كنا نملك بعض دليل ينفى قرمطية المتنبى من مثل إقدامه على هجاء القرامطة ، ونعت إمامهم بأنه إمام المبطلين ، فإن القائلين بقرمطيته لا يملكون أدنى دليل على ادعائهم .أليس هو المتسائل مشفقاً على أن ليس للخلافة من يدفع عنها القرامطة وغيرهم من الأعاجم الذين عصفوا بأمنها فى قوله :

أمـا للخلافـة مـن مشـفق   على سيف دولتها الفاصل

ليس أبو الطيب إذن هو الذى يتبع إماماً يعتقد أنه إمام المبطلين ، وليس أبو الطيب -- وهو من هو تعصباً للعروبة - بالذى ينتمى إلى دعوة شعوبية تتجاوز الأسس الجنسية إلى المعتقدات والشرائع وتستهدف القضاء على كل مجد العرب .

كذلك ....

فإن ارتباطه بالحمدانيين - أعداء القرامطة الألداء- دليل على أنه ما كان قرمطياً فى يوم من الأيام ، وهو الذى مدح سيف الدولة بأن أباه أفنى القرامطة فى قوله :

أين المفر فى نجد فوارسها   بسيفه وله كوفان والحرم

وربما كانت قصيدته الميمية التى غلا فيها بمدح أبى الفضل غلواً شديداً واستعانته فيها بنظرية "الحلول" سبباً فى اتهامه بهذه التهمة إذ يقول :

يـا أيهـا الملـك المصـفى جـوهرا   من ذات ذى الملكوت أسمى من سما

نـور تظـاهر فيـك لاهوتيـة   فتكـاد تعلـم علـم مـا لـن يعلمـا

وواضح أنه يصف أبا الفضل بأنه نور من ذات الله ، نور لاهوتى وهو وصف على طريقة المتصوفة وما يؤمنون به من الحلول ، ولا شأن له بالقرمطية .

أو لعل بعض من رماه بهذه التهمة قد استند إلى الصفات المذمومة التى ذكرها عنه ابن حمزة [٢١] عندما قال :

"بلوت من أبى الطيب ثلاث خلال محمودة وذلك أنه ما كذب ولازنا ولا لاط ، وبلوت من ثلاث خلال مذمومة ، ذلك أنه ما صام ولا صلى ولاقرأ القرآن ".

نقول: قد يأخذ البعض هذه المقولة دليلاً على قرمطية المتنبى ، لكننا نسقط هذه الحجة بسؤال يسير:

ترى: كم من المسلمين اليوم الذين لا يصلون ولا يصومون ولا يقرأون القرآن الكريم ؟؟؟

فهل هم قرامطة أيضاً ؟؟؟.

الهوامش

1. مطالعات فى الكتب والحياة .
2. الصبح المنبى .
3. التبيان .
4. الصبح المنبى .
5. السابق .
6. عباس حسن .
7. مطالعات فى الكتب والحياة .
8. يتيمة الدهر.
9. د. يسرى محمد سلامة .
10. مع المتنبى .
11. فصول فى الشعر ونقده .
12. المتنبى إمام العصر الإسماعيلى ، ترجمة أكرم فاضل ، مقال بمجلة المورد .
13. المهدى والمهدوية .
14. الشهرستانى : الملل والنحل .
15. تاريخ ابن خلدون ، جـ٣.

١٦. محمد عبد الله السمان : دراسة بجريدة الوفد القاهريه .

١٧. البداية والنهاية .

١٨. الحكمة فى شعر المتنبى .

١٩. المتنبى ، رسالة فى الطريق إلى ثقافتنا .

٢٠. المتنبى بين ناقديه .

٢١. الصبح المنبى .

خاتمة

لعل ما طرحناه يعطى صورة مبسطة – تناسب عصر أبى الطيب – عن مجمل ثقافة ذلك الشاعر الفحل .. تعلم فى الكتاب ، ترحال إلى البادية ، تردد على محال الوراقين ، احتكاك بالفلسفة اليونانية ،وقبل ذلك نبوغ مبكر صادف موهبة بحجم لا يقارن استوعبت ذلك كله ، وصهرته فى بوتقة ذات متطلعة إلى التميز والارتقاء .

ورغم أن المتنبى غادرنا منذ أكثر من ألف عام ، إلا أن شعره ما زال محتفظاً بحضوره وتوهجه ، ولم يأت ذلك من فراغ ، وإنما كان المرتكز والمنطلق : طبع شامخ وخيال جامح ، وفكر عميق ، وتجربة حية ، وعاطفة جياشة ، تضافرت كلها وأنضجت عبقريته هذا الرجل الذى ضرجه الموت بدمائه .

لقد استكشف أبو الطيب طبيعة الشعر الحقيقى ، تلك الطبيعة التى لا صلة لها بأى زمان أو مكان والتى يستكشفها الشعراء كافة . إلا أن العباقرة منهم هم الذين يسبرون غورها ، ويملكون القدرة على التعبير عنها .

وتبدو عبقرية الشاعر الفذة فى استكناه ماسيثيره إبداعه بعد موته أليس هو القائل :

وما الدهر إلا من رواة قصائدى
إذا قلت شعراً أصبح الدهر منشدا
فسار به من لا يسير مشمراً
وغنى به من لا يغنى مغرداً

وصـــــــــــــــدقت نبوءتـــــــــــــــه

فهو وإن كان قد سقط مضرجاً سقوط الجبابرة

وإن كـــان المـــوت قـــد أغلـــق ســـفر حياتـــه

لكـــن المـــوت أيضـــاً فـــتح أســـفار إبداعـــه

فمـــا أضـــعف الحيـــاة أمـــام المـــوت

ومـــا أضـــعف المـــوت أمـــام العبقريـــة

ثبت المصادر المراجع

ابن خلدون : مقدمة ابن خلدون ، مراجعة أحمد زكى ، مختارات من تراثنا ، وزارة الثقافة والإرشاد بمصر ، الطبعة الأولى ١٩٦٠.

ابن قطاع الصقلى: شرح المشكل فى شعر المتنبى ، تحقيق الدكتور محسن غياض ، وزارة الإعلام ، العراق .

أحمد زيد : دكتور /البناء الاجتماعى ، الهيئة العامة للكتاب فرع الإسكندرية ، الطبعة الثامنة ١٩٨٢.

أحمد بدوى : دكتور/أسس النقد الأدبى عند العرب ، طبعة الفجالة ، مصر ، د . ت

أحمد حسن الزيات: تاريخ الأدب العربى ، الطبعة الـ٢٥ - دار نهضة مصر ، د .ت .

أحمد سيد محمد: دكتور / الشخصية المصرية فى الأدبين الفاطمى والأيوبى ،دار المعارف بمصر ١٩٧٩ .

حسين مؤنس: دكتور / مصر ورسالتها ، مطبوعات دار الشعب ، مصر ، الطبعة الخامسة ، ١٩٧٦ .

حلمى بدير: دكتور / فصول فى الأدب .. التراث النقد . النظرية ، دار المعارف ، مصر الطبعة الأولى ١٩٨٣ .

زكى المحاسنى: دكتور / التنبى، دار المعارف ، مصر ١٩٦١ .

شوقى ضيف: دكتور / فصول فى الشعر ونقده ، دار المعارف ، مصر ١٩٧١ .

شوقي ضيف: دكتور /في النقد الأدبي ، دار المعارف ، مصر - الطبعة السادسة ١٩٨١.

الطاهر لبيب: دكتور /سوسيولوجية الثقافة ، معهد البحوث والدراسات العربية ، مصر ١٩٧٨.

طه حسين : دكتور/ من حديث الشعر والنثر ، دار المعارف ، مصر ١٩٦٥ .

طه حسين: دكتور/ مع المتنبي ، دار المعارف ، مصر ، الطبعة الحادية عشرة ١٩٧٦.

عباس حسن : المتنبي وشوقي ، دار المعارف ، مصر ١٩٦٤ .

عباس محمود العقاد / وآخرون/ أبو الطيب المتنبي حياته وشعره ، مجموعة مقالات ، المكتبة الحديثة ،بيروت ، الطبعة الأولى ١٩٨٢.

عباس العقاد : مطالعات في الكتب والحياة ، المطبعة التجارية الكبرى ، مصر ١٩٢٤ .

عبد الفتاح السيد الدماصي: دكتور/ النقد الأدبي التطبيقي ، المطبعة العربية ، مصر ١٩٧٦ .

عبد الوهاب عزام : ذكرى أبي الطيب بعد ألف عام ، طبعة الجزيرة ، بغداد ١٩٣٦ .

علي الجارم : الشاعر الطموح ،سلسلة اقرأ ، دار المعارف ، مصر، العدد ٥١ .

محمد زغلول سلام : دكتور/ تاريخ النقد العربي إلى القرن الرابع الهجري ، دار المعارف ، مصر، د.ت.

محمد عبد الرحمن شعيب: دكتور/ المتنبي بين ناقديه ، دار المعارف ، مصر ١٩٦٤ .

محمد محمد على أبو زيد: دكتور / النيل ومصر، دار الهداية للطباعة والنشر، مصر ١٩٨٧ .

محمد كامل حسين : دكتور/ الشعر العربى والذوق المعاصر ،مطبوعات دار الشعب بمصر، د.ت .

محمد مندور (وآخرون) : دكتور /آراء حول قديم الشعر وجديده، مجموعة مقالات ، سلسلة كتاب العربى ، الكويت ، العدد ١٣، أكتوبر ١٩٨٦،

محمد محمود شاكر: المتنبى ... رسالة فى الطريق إلى ثقافتنا ، دار المدنى بجدة ، مكتبة الخانجي بالقاهرة ١٤٠٧هـ /١٩٨٧م.

معن زيادة/ دكتور / معالم على طريق تحديث الفكر العربى ، سلسلة عالم المعرفة ، الكويت ، العدد ١١٥ ،يوليو ١٩٨٧ .

النعمان القاضى : دكتور/كافوريات أبى الطيب ، مركز كتب الشرق الأوسط ، مصر١٩٧٥ .

هادى نعمان الهيتى: دكتور/ ثقافة الأطفال، سلسلة عالم المعرفة ، الكويت ، العدد ١٢٣، مارس١٩٨٨ .

يسرى محمد سلامة: دكتور/ الحكمة فى شعر المتنبى ، دار المعارف ، مصر ١٩٨٢ .

يوسف أسعد : سيكولوجية الإبداع، سلسلة دراسات أدبية ، الهيئة العامة للكتاب ، مصر ١٩٨٦.

يوسف البديعى: الصبح المنبى عن حيثية المتنبى ، تحقيق وتعليق مصطفى السقا ، وعبده زيادة عبده ، ومحمد شتا ، دار المعارف ، مصر ١٩٦٣.

ديوان أبى الطيب : علق على وفسر كلماته اللغوية سليم إبراهيم صادر ، المطبعة العلمية، بيروت ١٩٠٠.

الموسوعة الثقافية: مؤسسة فرانكلين ، القاهرة ١٩٧٢

الدوريات :

مجلة الثقافة العالمية ، الكويت ، العدد ٣٥، يوليو ١٩٨٧ .

مجلة الدارة ، السعودية ، العدد الثالث ، السنة الثالثة عشرة ، ربيع الآخر ١٤٠٨هـ .

مجلة فصول، العدد ١ ،٢ من المجلد السابع ، عدد خاص عن الشعر العربى الحديث ، الهيئة العامة للكتاب ، مصر ، أكتوبر- مارس ١٩٨٨.

المجلة العربية للعلوم الإنسانية ، الكويت ، العدد١٦ ، المجلد الرابع ، خريف ١٩٨٤ .

المجلة العربية للعلوم الإنسانية ، الكويت ، العدد ٢٦ ، المجلد السابع ، ربيع ١٩٨٧ .

مجلة الطليعة الأدبية ، العراق ، عدد خاص عن المتنبى ، العدد الثالث ، المجلد السادس ١٩٧٧ .

جريدة الوفد ، مصر ، العدد ٢١٧ ، دراسة عن القرامطة أهل الضلال ، محمد عبد الله السمان .

جريدة الوفد ، مصر ، العدد ٢٢١، دراسة عن الموت والخلود فى حياة المصريين ، جمال بدوى .